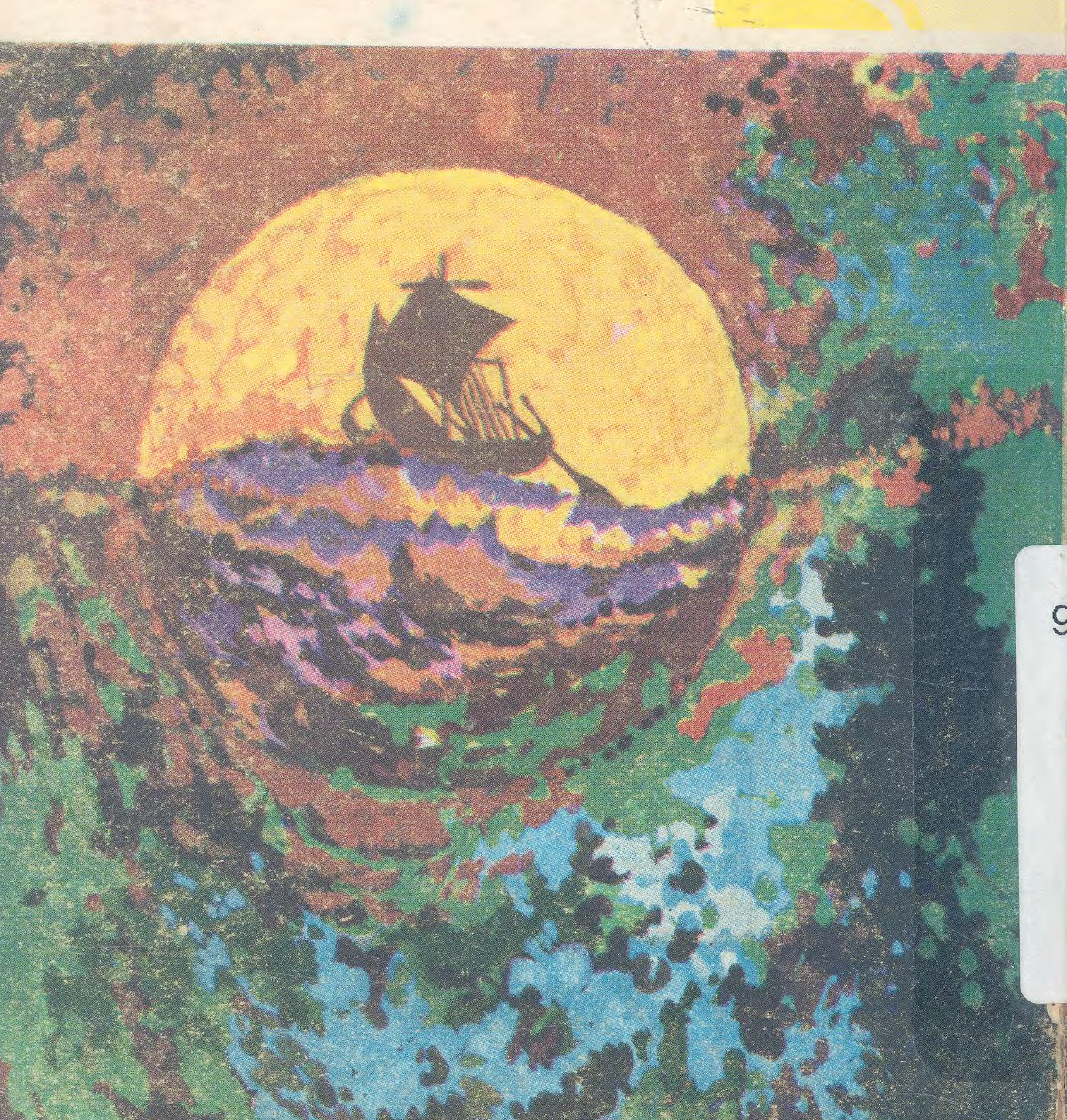
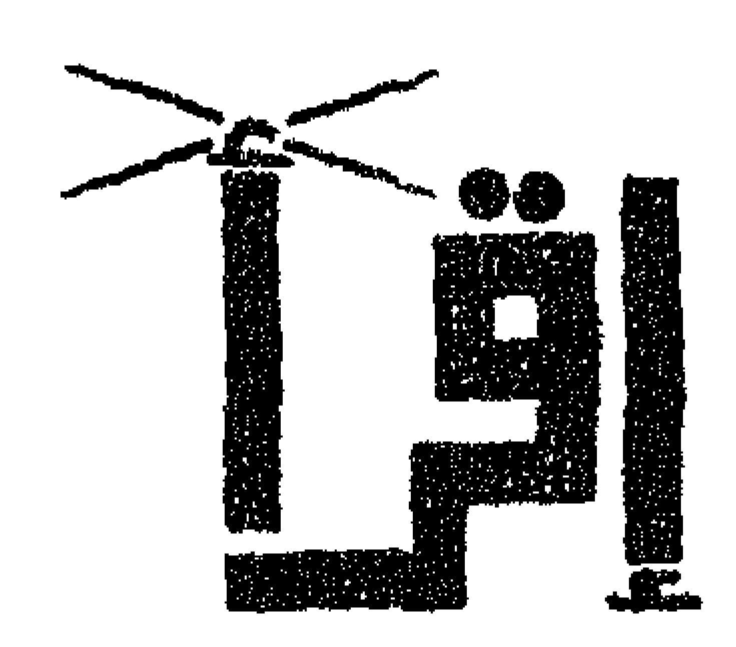
اقرأ

تأليف : ثور هايردال
تلخيص : ميشيل تكلا
تقديم : كمال الملاخ

رحلات رع





تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



اقرأ ٣٦٢ - يناير سنة ١٩٧٣

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

رحلات ع



للرحالة النرويجي **ثور هايردال**

تلخيص

ميشيل تكلا

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

هذه الرحلة .. وهذا الرجل !

مقدمة :

بقلم : كمال الملاخ

من حول فنجال شاى فى مكتبى بالقاهرة كان لقاؤنا الأول من ٥ سنوات . ونظرت فى عينى ضيفى الأشقر الطويل القامة إلى حد ما . . . ولم أجد إلا الجرأة والإقدام . . . ثم شيئاً آخر ربما أسميه : المغامرة . وكان حاضراً فى زيارته إلى مصر للمرة الأولى ليدرس إمكانية قيامه بما كان يعتزمه فى ذلك الحين ، ذلك أنه يعرض مشروعه فى أن يجدل مع رجال يختارهم زورقاً من نبات البردى كما فعل أجدادنا، ولكن ليبحر به من مياه بحرنا الأبيض ومن مضيق جبل طارق يجتاز به ويعبر المحيط الأطلسى فى وجهته إلى خليج المكسيك، كما لم يفعل أجدادنا حسب دراستى وتصورى. وبالطبع حمى النقاش يومها وراح الحوار ينسج جلستنا وهو يكاد يقرب من الغضب . ولم أعجب فاسمه الأول (ثور) هو رب العاصفة والرياح العاتية وزمجرة الغضب عند أهل شمال أوربا . أهل النرويج وكل ما يجاورها من دول خمس فى إسكنديناڤا .

قلت لصاحبنا ضيف القاهرة القادم من بعيد : (ثور هايردال) الذهبى الشعر الطويل القامة إلى حد ما . وكان ثالثنا زوجته الجميلة: لماذا تغضب

وتثور حول حقائق التاريخ والعلم . وأنا واحد من المتعصبين لتاريخ بلادى ، والفخور بكل تفاصيله وما أعطوا للحضارة . وكان كل نبت من فروعها نبتـًا مصريـًّا . ولكن العلم ، علم التاريخ ، وحقيقة التاريخ تعلو على مشاعرى . أنا أبحث عن كل ورقة خضراء أضيفها إلى شجرة الحضارة الضخمة المورقة المصرية . . . ولكن سماء التاريخ تعلوها بزرقة صفاء العلم والحق يظللها . أنا مع مصر وحضارتنا الضاربة ومع الحقيقة .
صحيح أننا هنا على ضفتى النيل وعند شواطئ بحرينا الأحمر والأبيض وعلى طول سواحل بحيراتنا الخمس فكرنا ضمن ما فكرنا وسعينا إليه أن نركب الصعب . نركب الماء . نطفو فوق صفحاته ونعلو موجاته . وهكذا فكرنا فى بناء المركب . أول زورق . أول مركب فى التاريخ . تاريخ البشر .
صنعنا أول زورق أولا فى خيال الأساطير . هل تذكر أسطورتنا ذات تفاصيل الوفاء والإيمان ، وكيف تغلبا على الخديعة والمكر والدهاء والشر . . .
أعنى أسطورة أوزير وإيزيس . وكيف اختلف الأخوان . حنق الأخ الشرير على أخيه الطيب الخير أوزير ف . . . . وتستمر التفاصيل ، وإذا بتابوته يطفو مع الأمواج وتيار النيل . فيسرى به شمالا ليتلقفه موج البحر الأخضر العظيم . . . هكذا كانوا يسمون بحرنا الأبيض . . . وإذا بالتابوت يحمله الموج إلى شاطئ بيلوس القديم وهناك عند شاطئ جبل لبنان يتحول أوزير من تابوته إلى شجرة وارفة الظلال . ومن جذعها الذى يختاره حاكمها ليرضى به انبهار ابنته الأميرة ليأمر بنحت عمود خشبى يكمل به قاعة الأعمدة فى قصره الجميل . وتطير إليه إيزيس . زوجته

الوفية . وكانت أول من تخيل لها البشر أجنحة . كانت أيضًا إلهة السحر وهناك تنكرت . تقربت وسعت إليها الأميرة واستضافتها لترى ما أحضرت من عطر وأدوات زينة . وفى الليل تتحسس عمود زوجها . وتقتلعه . وإلى البحر تسعى به وتأتى به طافية على الماء حتى مستنقعات الدلتا .

وهناك يبعث من جديد بعد أن أطرته دموعها ... وتستمر الاسطورة . ولكن هكذا كانت أول رحلة بحرية فى الوجود . فى وجود خيال البشر وأسطورته . . . التى تتابع . يظهر فجأة (ست) أخوها الشرير من وراء أكمة . لا يرضيه مايرى على ضوء القمر الساطع ... قصة وفاء وحب وخير وإخلاص . . . هذا هراء . إذن لماذا هو موجود ولماذا الكراهية والشر الكامن . . . فيستل سيفه وينهال على أخيه الطيب أوزير يقطعه إربًا . . . ويمسك مقهقهاً بأشلاء الأخ الكريم يقذف بكل منها إلى مكان بعيد فى السماء لتتشتت أينما وقعت ! ! .

وإذا بإيزيس الوفية . . . تهرع باكية مفكرة فى ثانى رحلة لها فى التاريخ الأسطورى . . . تجمع سيقان نبات البردى . . . من عند الشاطئ ذاته . . . تجدله زورقاً نباتيًّا صغيراً ... تركبه ... صاعدة نيل مصر . . . حتى تجمع أشلاء جسد زوجها فيما عدا قطعة واحدة .

وتستمر القصة تحكى وتحكى وتروى مزيداً من التفاصيل والحكايا . . . ويستمتع بالقصة ، قصة الأسطورة ، كل من يسمعها من الأحياء . . . وهكذا يستمرون فى جدل زوارقهم الصغيرة التى يعبرون بها النيل فقط من مكان إلى مكان ومن شاطئ إلى شاطئ ... وحرصوا على أن يجدلوها بادئ

الأمر من نبات البردى متوهمين أنه لا يغرق . إنه نبات مقدس طالما اختارته الإلهة إيزيس .

ويتحضر المصريون أكثر ويجلبون ما ينقص وادينا من خشب . ويبنون منه ويصنعون زوارق ومراكب . . . لتعبر وتبحر وتقبل إلى مسافات طويلة . ولكن من خشب لا من أغصان البردى .

ويحاول ضيفى (ثور هايردال) . . . أن يتحدث .

هو الضيف . . . إذن أتركه يتكلم . ولكن لا يستطيع نقاشاً . فالعلم مع التاريخ أقوى من صورة خلفية أرادها لرحلته المقبلة. لمزيد من الإثارة العالمية . إنه يحيي حضارة مصر العظمى .

وحضارة مصر عظمى نعم. حضارة كبرى نعم. هى أولى حضارات كوكبنا ، وقبل حضارة الصين القديمة بأكثر من ٧٠٠ سنة . ولكن أعود إلى الحق من خلال وثائق التاريخ .

فالثابت أننا فعلا كنا أول من عبر أمواج بحرنا الأبيض . ولكن إلى حد منتصفه . فى ركنه الشرقى نعم . ولكن قلة من رحلاتنا كانت تجوب فى عصورنا المتأخرة ما بين مصر وشواطئ آسيا الصغرى واليونان القديم وحتى روما وبالقرب من شواطئها وبالطبع جزر بحرنا حتى برقة غرباً . ولكن أكثر من هذا فى هذا البحر فلا .

ومن قديم الزمان سجل رجال « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة ما كان يفخر به إذ أمر بأن تنقل البحرية المصرية خشباً من أخشاب أشجار الأرز من لبنان القديم إلى مصر فشحنت ما يملأ حمولة ٤٠ مركبا مصرياً .

وغنى عن التعريف أن المصريين ما قبل التاريخ بآلاف السنين كانوا يرمزون إلى المراكب العتيقة برسوم أو نقوش ساذجة على أوانى الفخار الأولى كزخرفة أو على نتوء الصخور كرسوم تعكس أحلامهم فى الانتقال من مكان إلى آخر . وقد عثر عالم ما قبل التاريخ والأسرات : فلندز بيترى على ما عثر عليه وكشف عنه نموذجاً لمركب شراعى يعود تاريخه إلى ١١ ألف سنة وذلك خلال حفائره فى الفيوم .

والحديث والكلام والكتابة عن المراكب المصرية وأنواعها يطول من مراكب إبحار وسفر عادية تنشر الجناح أو الشراع كلما هبت الريح أو أبحرت فى اتجاه الريح أو تريد الإسراع واختصار مدة السفر . وكان الشراع فى متوسط مساحته من ٦٠ إلى ٧٠ متراً مربعاً ، يلفونه على ساريته التى ينزلونها إلى سطح المركب فى حالة سكون الريح فى اتجاه متوازٍ بـ [كاميرا] أو حجرة أهم من فى المركب والتى تقام عادة على مسطحة مسقوفة ومحاطة إما بألواح أخشاب وغالباً بحصير البردى . . . ولعل أفخم المراكب الملكية هى : (نجمة القطرين) التى كان يبحر بها تحتمس الثالث . وكان لكل مركب اسم . فلا غرابة إذن أنه اشتق « ثورها يردال » اسم [رع] لمركبه الذى غامر به ، وإن اتخذ من شمس مصر وإلهها القديم رمزاً يؤكد به مصرية رحلته . وتختلف أطوال مراكبنا وأنواعها .

● مراكب وزوارق عادية : تعدى النيل غالباً مجدولة من البردى .

● مراكب نيلية : لرحلات طويلة مصنوعة من خشب ترفع مؤخرتها . ذات مجاديف عديدة . ودفة من مجدافين . وعليها مقصورة

صغيرة ليقف عندها « كابتن » الرحلة .

● مراكب بحرية : أكبر حجماً كانت تبحر إلى الجنوب فى بحرنا الأحمر إلى بلاد بونت ، أو إلى شرق بحرنا الأبيض إلى سوريا أو لبنان القديم مثل تلك التى نطلق عليها (جبيليا) أى المتجهة إلى ميناء جبيل .

● مراكب شحن : ولها أبعاد وعروض مختلفة .

● مراكب الشرطة البحرية : وهى تلك التى تجوب مياه النيل لحراسة مراكب الشحن والسفر والإبحار العادية هادفة الأمان لكل من يركب صفحة النيل من المعتدين واللصوص والقراصنة . كما أمر بها حور محب .

● مراكب حربية : مثل تلك التى استعملها تحتمس الثالث أيام أسرتنا الـ ١٨ من تاريخنا القديم خلال غزواته أو حملاته الحربية الـ ١٧ عدداً وكان من بينها خدعته الحربية الكبرى ، يوم أن حمل بعض رجاله عدداً من الزوارق والمراكب الحربية فوق عجلات تجرها الثيران واتجهت شرقاً ، وما إن وصلت إلى نهر الفرات حتى كشفوا عنها وأهبطوا زوارقنا ومراكبنا الحربية إلى سطح مياه النهر هناك ، ونجحت فى عبوره وهى محملة بالعتاد والجنود المصرية وغزت شرق النهر وأقامت هناك سجلا بذلك النجاح .

● مراكب صيد ونزهة لصيد الأسماك وقضاء وقت طيب يوم الإجازة والأعياد .

● مراكب وزوارق رياضية : تتبع مباريات السباحة . . . ثم يلعبون

فوقها ويتبارون . . . أى فريق ينتصر على الآخر فيما لو استعمل المشاجب و(الزقل) الخشبية الطويلة يدفع بها ممسكها منافسه عن سطح المركب الآخر . . . بين صخب الروح الرياضية ومداعبتها .

● مراكب دينية : مثل تلك التى كانت تابعة للكهنة وفرعون تحمل زورق الإله : مثل المراكب الدينية الضخمة التى كانت تبحر فى عيد هو (ايبوت) عند ما تقلع من عند شاطئ معبد الأقصر شمالا حتى ميناء معابد الكرنك حاملة زورق تمثال « آمون رع » . . . . فى وسط همهمة الطقوس الدينية وهتافات المبتهلين وأنغام الكهنة والعازفين .

● مراكب مقدسة : وهى مراكب الشمس . . . التى تعودوا أن يضعوها فى خدمة الروح إلى جوار مدفن صاحبها مثل تلك التى منحتنى السماء حظ وشرف الكشف عنها فكانت أولى مراكب حقيقية من خشب — وليست رسومًا فقط أو نقوشًا لها — جنوب هرمنا الأكبر هرم خوفو فوق ربوة الجيزة فى ٢٦ مايو ١٩٥٤ تطول كل منها نحو ٤٥ مترًا بعض أجزائها من قطعة خشبية واحدة تطول ٢٣ مترًا ! إحداها لرحلة النهار وكان الفراعنة يطلقون عليها (معنجت) والثانية التى تجاورها وتماثلها طولا لرحلة الليل ويسمونها (مسكتت) وبذلك أثبت أيضًا أن المصريين عرفوا من ٥٠٠٠ سنة على الأقل وتخيلوا عالمنا بأنه دائرى أو بيضاوى يلفون حوله يطلقون عنان خيالهم إلى أعلى نقطة فى السماء نهارًا وراء الشمس فى رحلتها ، ثم هناك عالم آخر يتخيلون وجوده وهو الذى يسمونه ويطلقون

عليه « ايم دوات » أى العالم التحتى السفلى، أى القوس الذى يطوف من تحتنا لعالم تجوبه الشمس، ذات الشمس ما بين مغيب وشروق جديد تلد لها من ذاتها أو ذاته فقد كانت ذكراً وأنثى فى الوقت ذاته عند الأقدمين.. وليداً جديداً لها : شمساً جديدة : أطلقوا عليها ٣ أسماء على عمرها الذى يختلف بين الفجر والمغيب : « نفرتم » وهى وليدة تحبو فى المشرق . . . ثم ما تلبث شاباً قوياً « رع » وهى تجتاز السماء علواً وارتفاعاً — ومن هنا اتخذ صاحبنا : ثور هايردال : اسم مركبه . . . ثم والشمس فى طريقها إلى الغرب وإلى مغيب إنما تكبر وتشيخ وتتوكأ على عصاً وهنا يتخذون لها الاسم الثالث وهو « أتوم » .

ونعود إلى ثور هايردال ورحلته أو مغامرته التى يحاول أن يربط فيها بين حضارتى مصر والمكسيك وأنه برحلته البحرية هذه سيثبت أن أجدادنا عبروا إلى هناك بدليل تلك الأهرامات المقامة على أرض المكسيك؛ هذه وجهة نظره التى أخالفها . صحيح أننا وقديماً عبرنا كل منتصف بحرنا الأبيض كما بينت واجتزنا حتى شلالنا الرابع فى النيل وأبحرنا عند كل موانئ بحرنا الأحمر حتى وصلنا إلى باب المندب وبلاد بونت والصومال . ثم هناك رحلة يتحدث عنها هيرودوت أنها تمت فى عصر الفرعون « نكاو » الثانى : وحم ايب رع الذى عاش فى القرن السادس ق . م . أو على وجه التحديد حكم مصر ١٥ سنة ابتداء من عام ٦٠٩ ق . م . ذلك أنه يقال إن نكاو — وهو ثانى فراعنة الأسرة الـ ٢٦ إبان عصر بعث نهضتنا المصرية القديمة — بعث بجماعة للطواف حول أفريقيا . استغرقت

رحلتهم ٣ سنوات . وبرهان هذا أن بحارتها عادوا ليحكوا كيف رأوا الشمس تشرق عن يمينهم أو من الغرب ! . وكان هؤلاء البحارة من الفينيقيين . ويذهب الباحثون إلى أنهم بذلك قاربوا جنوب أفريقيا . ولو أنى أعتقد دون جلب فخار رخيص . . . أنهم قد يكونون أبحروا حول منحنى كبير بالقرب من باب المندب فيما لو اجتازوه جنوباً . لأنه لاتوجد أى فائدة ترجى من مثل هذه الرحلة ؟ بعقليتنا الواقعية القديمة ! .

ثم أناقش مسألة الأهرامات بين مصر والمكسيك . . . أو تلك المقامة خلال دولتنا القديمة والوسطى فوق ربى غرب وادينا وأهرامات المكسيك، وأشرح لضيفى أشقر الشعر الطويل القامة إلى حد ما الفرق الواضح بينهما زمنياً ومعمارياً ووظيفة ! .

فأهراماتنا الـ ٨٢ إنما هى أقدم طويلا . . . بدأت فكرة إقامتها تحت سماء مصر كل منها كمدفن لفرعون أو للملكة زوجته وذلك كما أسلفت فى حقبتين من حضارتنا القديمة ألا وهى القديمة حتى المتوسطة وكان صلبها من حجر وإن اضمحلت أخيراً فكانت من طوب لبن فى قلة منها . وفى الوقت ذاته كانت أوجهها المائلة نحو الجهات الأربع الأصلية لدنيانا، إنما لانعكاس بهاء رب الأرباب الذى يعتقدون فيه : الشمس (رع) ثم تمر فترة طويلة لا يعيشها إنسان واحد يستطيع أن يعبر البحر والمحيط ويتابع ما تركه فى مصر ليقيمه حيث حط به المقام الجديد ويشيد هرماً فى المكسيك . فلا يوجد إنسان عاش وحده ١٤٠٠ سنة ! ! وهذه هى الهوة الزمنية أو الفترة التى طالت حتى ظهر هرم واحد مبنى من

الحجر وهو هرم بالنكى فى المكسيك . وأصغر حجماً ، وقد أقيم عام٦٩٢ ق . م . أى بعد أن هجر أجدادنا فكرة إقامة الأهرام بـ ١٤ قرناً من الزمان ! ! لأنها كانت ظاهرة للاعتداء ، ومن ثم غيروا أساوب الدفن الملكى الفرعونى فحفروا له مقابرهم داخل جوف الجبل خاصة جبل القرنة غرب الأقصر إبان عصر الإمبراطورية القديمة أو عصر الدولة الحديثة من تاريخنا القديم .

والواضح أن أغلب أهرامات المكسيك قد بنى بعد بداية العصر المسيحى وبعد الميلاد بـ ٢٠٠ سنة وأكثر . وهى أقل حجماً وارتفاعاً . قاعدة ترتفع هرمية بالطين وليست حتى بقوالب الطوب النيء ، لترفع فوقها معبداً للقمر لا للشمس ! ! .

وأتابع حديثى مع ضيفى النرويجى المغامر الذكى : ثور هيردال ... أن الحضارة ، أى حضارة ، إنما تتبع طريقين أولهما :

● الانتشار : ذلك أن تقتبس حضارة ما أقيمت على أرض بعيدة من حضارة سابقة لها وإن كانت تعايشها على امتدادها .

● الانعزال : وهى ثانى الطريقين . . . وهى إمكانية قيام حضارة فى بقعة ما دون اتصال مع حضارة أخرى . وهى تلك التى أميل لها فى حالتنا هذه . أى توارد أفكار وخواطر . وفكر الإنسان واحد ، واقعه وأحلامه وخياله ومخاوفه وقلقه وأوجاعه وحتى أمراضه . . . أينما كان ، ربما يسمع بحكاية عن طريق إنسان يتناقلها من رجال قوافل يجوبون على الأرض

أو من بحارة من ميناء إلى ميناء آخر . . . وتبقى الحكاية عالقة فى الخيال حتى ينفذها الإنسان . مثل ما يحدث الآن على سبيل المثال من سفن الفضاء والطلوع والمشى فوق القمر . . ألم يتخيل أجدادنا كل هذا وأكثر . فإذا كان هو المقصود فأهلا وسهلا بمغامرة النرويجى الجرىء هايردال . . أما محاولة ربط الصلة فى أن مصريين عبروا واجتازوا فلا . . مهما استند إلى هواجس عابرى سبيل مثل المؤرخ الأوربى القديم بلينوس سكوندس كانحوس الذى عاش فى بداية المسيحية وليس فى عصر المصرية القديمة . . عند ما ذكر وكتب بأن أجدادنا عبروا البحر فى قوارب من البردى .

وهو بالكاد ما كانوا يعبرون به الضحل من البحيرات أو البرك لصيد الأسماك أو البط لأخذ البيض من أعشاشها فوق سيقان أحراش النباتات أو يعبرون به عرض النيل من شاطىء إلى آخر . و بالطبع ليس من رأى كمن سمع .

ولهذا فالواقع الملموس برهان أكيد .

وأعود لضيفى الأشقر الشعر الطويل القامة إلى حد ما . . .

أنظر فى عينيه فلا أرى إلا مزيداً من الإصرار والجرأة والإقدام قائلا لى قد يكون الحق معك مع الصدق ولكن سوف أقوم برحلتى . سأقوم بها .

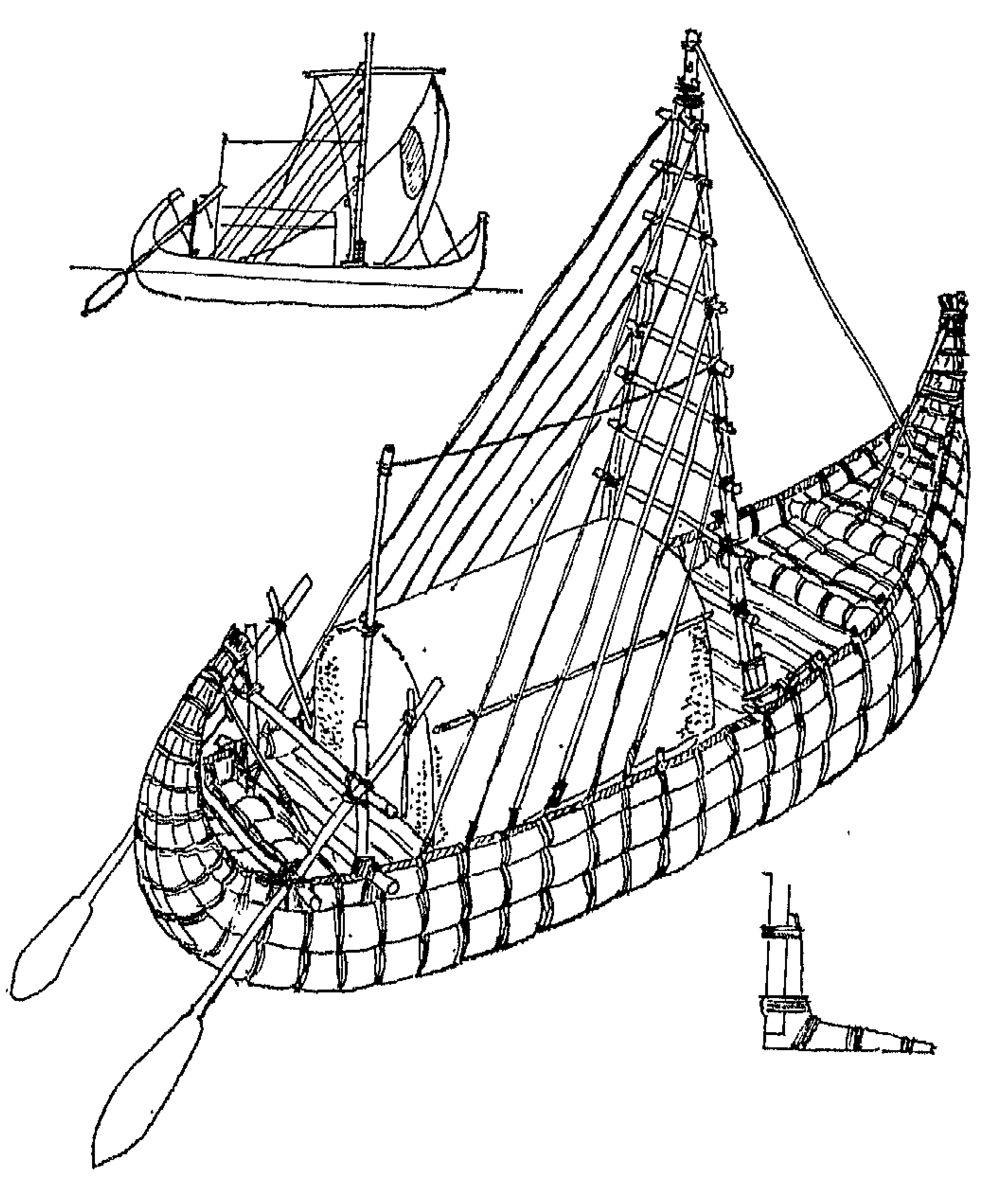
وتضحك زوجته الجميلة الرقيقة وهى تحكى كيف كان زوجها يخاف البحر صغيراً ولا يعرف حتى السباحة ! .

وأتتبع رحلته الأولى وقلبى معه . وأنزعج لفشل رحلته الأولى ، وأتتبع رحلته الثانية وقلبى معه وأسعد بنجاحها خاصة وأن مصرياً شجاعاً كان على قائمة رجال بعثته وهو الجرىء المقدام : جورج سوريال الذى عاونه فى الرحلتين .

وعند ما قال لى صديقى رجل العلم والعلوم « ميشيل تكلا » إنه فى سبيل إعداد كتاب بالعربية عن رحلة القارب (رع ٢) وإن دار المعارف ستطبعه وتنشره وإنه يريد مقدمة له فجال قلمى بهذه السطور ، لا أحاول بها أو أبغى إلا لمحة صدق فى تاريخنا المشرق والذى أضاء للإنسان فى زمانه الماضى طريق الحضارة تحت مشعل الثقافة . . . ثقافة الفكر والفن والعلم والإيمان .

ك . الملاخ

القاهرة : صيف ١٩٧٢



رسم كروكى للسفينة « رع »

الباب الأول

لغز واحد : ورأيان لا ثالث لهما . .

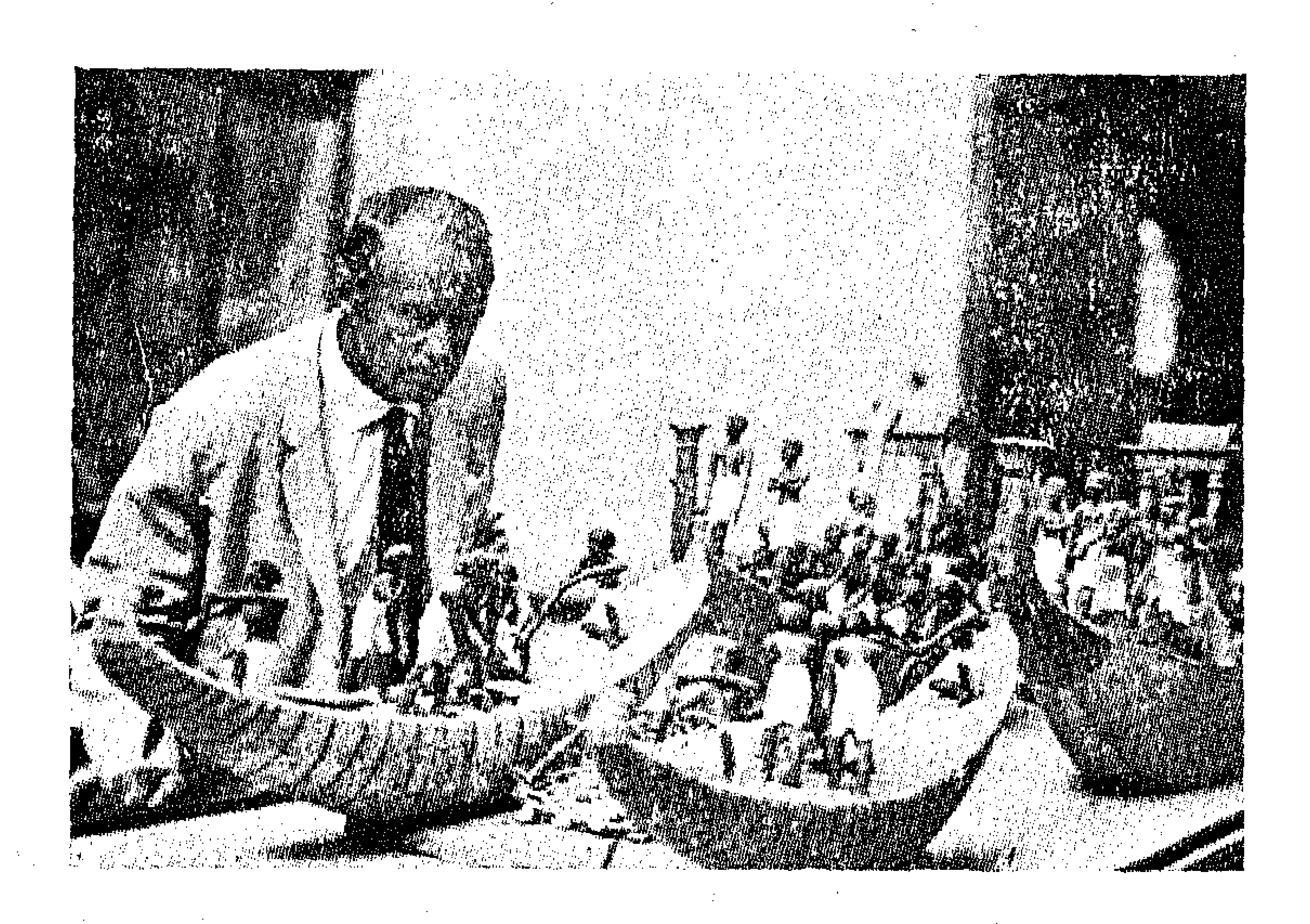
قصبة تعبث بها الرياح . . . نكسرها فتطفو على وجه المياه . . . وتتحمل ثقل ضفدع صغير . مائتا ألف قصبة داعبتها الريح . . . وحقل كامل منها كأعواد الحنطة الخضراء تموج على طول الشاطئ . نقطعها ونحزمها فى حزم كأعواد القمح ، فتطفو الحزم على وجه المياه . فيصعد إليها روسى ، وأفريقى ، ومكسيكى ، ومصرى ، وأمريكى ، وإيطالى ، وأنا نرويجى ، ومعنا قرد وعدد من الدجاج الصيّاح ، فى طريقنا إلى أمريكا . . . .

نحن الآن فى مصر . . . فوق رمالها الجافة الساخنة أو فوق رمال الصحراء . . . يؤكد لى عبد الله أن أعواد البردى ستطفو ، وأننا سوف نكون فى مأمن ، ونحن على أعواد البوص ما دامت الحبال ستحملنا . . . ولكن هل تتحمل الحبال ؟

شعرت بإنسان يهزنى من كتفى ليوقظنى . وقال عبد الله : إن الساعة الآن الثالثة لنبدأ عملنا من جديد . وكانت الشمس حامية فى داخل الخيام المصنوعة من الحيش . فقمت ونظرت من خلال فتحة فى الباب ، وهبت على حرارة جافة ، وضوء قوى حارق من الشمس التى ألهبت متاهات

الرمال الذهبية تحت سماء الله الزرقاء الصافية الأديم . . .

وظهر صف الأهرامات . . . ثلاثة منها كالطود الشامخ ، وهرمان صغيران كأنها أسنان سمك القرش فى قوس السماء . . . وقد ظلت هكذا لا تتحرك ، ولا تتغير منذ الوقت الذى كان فيه الرجال جزءاً من الطبيعة ، فبنوها طبقاً لتعاليم الطبيعة . وأمامنا فى المنخفض الضحل قبع شىء لا عمر له ، بنى منذ عشرة آلاف سنة ، شىء فى الرمال الصفراء على هيئة قارب نوح احتجزته الصحراء بعيداً عن البحر وأمواجه الصاخبة .



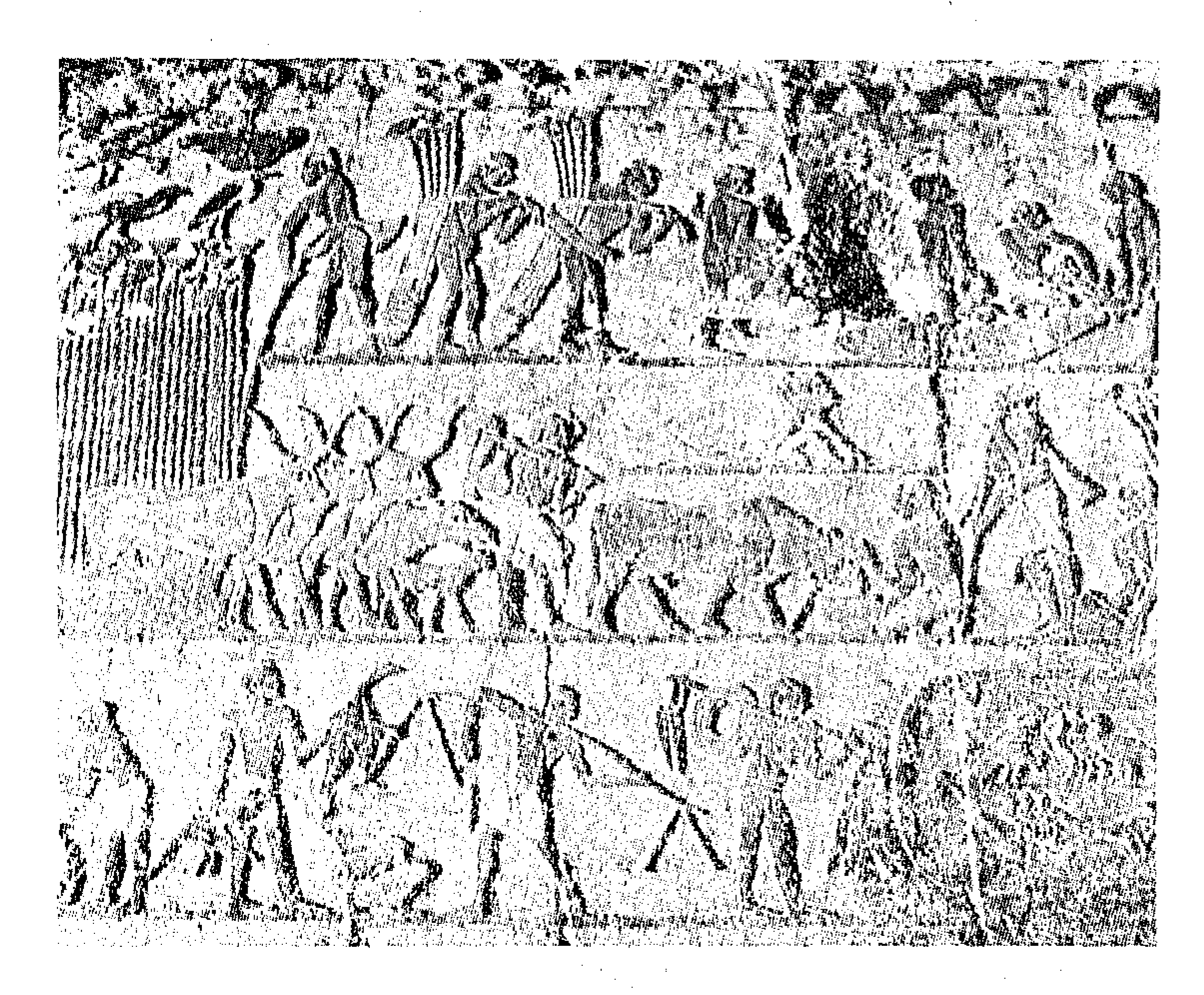
ثور هايردال يفحص نماذج من قوارب البردى المصرية القديمة المحفوظة فى المتحف المصرى — القاهرة

وقف بجواره جملان يجتران أجزاء من القارب المصنوع من نبات البردى . فقد حزمت الأعواد الذهبية على هيئة قارب يتطلع إلى زرقة السماء كأنه هلال . . .

بدأ العمال يحزمون حزماً من أعواد البردى ، وخرجت من الخيمة وكأنني نمت ألف سنة . فأنا صاحب فكرة إعادة بناء مثل هذه القوارب الورقية ، التي انصرف عن بنائها الملك خوفو وخلفاؤه ، وأمروا ببناء هذه الأهرامات التي بدت وكأنها سلسلة من الجبال الصلبة . . .

وجلس العمال يفتلون الحبال بأيديهم القوية ؛ وأسنانهم ، وأقدامهم العارية . ويبنون القارب من نبات البردى ، على غرار تلك القوارب المرسومة بأعداد هائلة على جدران غرف الدفن لبناة الأهرامات هنا فى الصحراء . وصادفتنا مشكلة : لا بد لهذا القارب من صار ننشر عليه الشراع . . . فعدت إلى الخيمة وأخرجت تصميمات القوارب المصرية القديمة ، فلم أر فيها أى أثر لمسمار ، ورأيت مسافة سميكة مسطحة نصب فوقها الصارى مشدوداً بالحبال ، بعد أن ثبت فى كتلة من الخشب القوى ، ربطت بالحبال أيضاً . وجلست أفكر فى خيمتى . فلم تكن لدى نظرية ثابتة عن المصريين القدماء ، وإذا كانوا حقيقة قد نقلوا حضارتهم إلى الجزر النائية أو القارات البعيدة . وكان هناك كثيرون ممن آمنوا بهذه الفكرة ، وأكدوا أن بناة الأهرامات نقلوا روحهم الثقافية إلى أمريكا الاستوائية قبل كولمبوس بأزمنة بعيدة . لم أكون لنفسى نظرية خاصة تؤكد ذلك الاعتقاد ، ولم أعثر على أى دليل مادى يؤكده أو ينفيه .

وشرعت أوازن بين حضارة مصر وحضارة المكسيك ، فرأيت هوة سحيقة بين الحضارتين أو التاريخين ، ورأيت كذلك فجوة من الماء أعرض من النيل بعشرة آلاف مرة . . .



المصريون القدماء يحزمون أعواد البردى لصناعة القوارب

كان المصريون القدماء يستخدمون قوارب مصنوعة من أعواد البردى ، ثم طوروها بقوارب مصنوعة من الخشب تتهادى على صفحة النيل . وعلى قيد خطوات من الخيمة كان صديقى أحمد يوسف يجمع قارباً خشبياً

من قوارب الملك خوفو .، وقد اكتشف علماء الآثار أن قارباً خشبياً كبيراً دفن على كل جانب من جوانب هذا الهرم العظيم .

إذن فهناك أربعة قوارب منها حفظت بإحكام[(١)] والغريب أن قارب خوفو العظيم قد صمم بطريقة فذة نادرة ، وبخبرة مهندسين ، أو بناة صنعوه ليبحر فى البحار المفتوحة بقدرة ونعومة يتحدى بها أعتى الأمواج . وبدأت أفكر مرة أخرى . إن المنظر الانسيابي للقوارب المصرية القديمة قد صممها المصريون القدماء ، أو نفس الجيل الذى اخترع الكتابة ، وبناء الأهرامات ، والتحنيط ، وجراحة المخ ، والفلك . أو ربما تدرب صناع هذه القوارب فى الخارج ، فى بعثات أمر بها الفرعون خوفو وحققها . ويبدو أن الرأى الأخير هو الأكثر احتمالا ، لأن خشب الأرز لا ينمو فى مصر ، ومنه صنعت هذه المراكب القديمة . وأن اللبنانين أو الفينقيين كانوا سادة صناعة القوارب التى مخروا بها عباب البحر الأبيض ، وأجزاء من المحيط الأطلنطى . وكان ميناؤهم بايبلوس أشهر ميناء أو مدينة فى العالم القديم ، استوردت البردى من مصر ، لأن المدينة كانت مركزاً للثقافة والكتب فى العصور القديمة . ومن كلمة بايبلوس Byblos [(٢)]أو بايبل كان معنى الكتاب المقدس . وكانت هناك

---

(١) والمؤلف يشير إلى مراكب الشمس التى اكتشفها الأثرى كمال الملاخ عام ١٩٥٤ والتى يرجع تاريخها إلى ٤٦٠٠ سنة مضت . (المترجم)

(٢) هى ميناء « جبيل » اللبنانى ، شمالى بيروت ، وكانت على علاقة تجارية مع مصر الفرعونية . (الناشر)



الإبحار بقوارب البردى فى النيل حيث كانت أقفاص الطيور وسلال الطعام وأوانى الماء تنقل من مكان لآخر

تجارة بين مصر و بايبلوس فى الوقت الذى بنى فيه هرم خوفو . وربما قلد بناة القوارب فى مصر سفن الفينقيين . . . من يدرى ؟ ولكن الغريب أن قوارب خوفو كانت مصممة على هيئة زهرة نبات البردى المتفتحة ، ترتفع مقدمتها ودفتها إلى أعلى بدرجة أكثر من سفن الفايكنج The Vikings وذلك للإقلاع بها فى أعالى البحار ، وليس للنزهة بها فوق صفحة النيل . . . وكان مركب البردى هو النموذج الذى أخذت عنه نماذج المراكب الخشبية وليس العكس . . .



قارب مصرى قديم من نبات البردى وعليه بحارته

ولكى نبنى قاربًا كقوارب قدماء المصريين فى الوقت الذى نهضت فيه حضارة البحر الأبيض على قدميها وعلى ضفاف نهر النيل ، لم نكن فى حاجة إلى مهارة نجار أو بلطة بل إلى سكين نقطع بها أعواد البردى وإلى بعض الحبال . وهذا ما كان يفعله كل من أصدقائى موسى وعمر وعبد الله هناك عند سفح أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع . . . كانوا

يبنون قاربًا من نبات البردى . تمامًا كالقوارب المنقوشة على حوائط المدافن التى تحيط بنا . . .

إذن فما الذى كنت أريد أن أحققه ؟ كنت أريد أن أحقق بناء قارب يتحمل السفر فى البحار ، وأثبت أن المصريين القدماء كانوا من أمهر بحارة العالم قبل أن يستقر بهم المقام ليقيموا التماثيل والبنايات التى تتحدى الزمن . . . واتجهت نحو ذلك القارب الذى قطع الرحلة بين مصر ولبنان أو المسافة التى لا تزيد عن مائتين وخمسين ميلا . . . وكنت أريد أن أعرف إذا كان قارب من البردى يستطيع أن يتجاوز هذه المسافة إلى ما وراء القارات . . . وأخيراً أردت أن أعرف إذا كان قارب من البردى يستطيع أن يتحمل الرحلة إلى أمريكا .

قد تسأل : لماذا كل هذا ؟ لأنه لا يوجد إنسان يعرف من الذى وصل أولا إلى أمريكا ؟ هل هو كولمبوس ؟ إنه لم يكتشف أمريكا بل أعاد اكتشافها . . . كان كولمبوس رجلا ذكيًّا شجاعًا عرف فى قرارة نفسه أن الأرض كروية ، وأنه لن يصطدم بحافة العالم ، فأقدم على رحلته إلى عالم المجهول . . . إنه يمثل نقطة التحول فى التاريخ ، لأنه غيّر طريقة الحياة فى العالم كله . ولكنه لم يكتشف أمريكا بل كان أول إنسان كشف الطريق إلى أمريكا للعالم كله . . . ووصلها فى عام ١٤٩٢ ميلادية . إذن فمتى اكتشفت أمريكا ؟ لا أحد يعلم . إن أول إنسان اكتشف أمريكا لم يحسب الوقت أو يعرف التاريخ بالضبط . ولم يعرف الكتابة أو أنه وصل إلى قارة جديدة . . . كل ما فى الأمر أن الرجل البدائى جال

السواحل المتجمدة لسيبيريا . وذات يوم وجد نفسه على الساحل الشرقى لمضيق بيرنج Bering Strait الثلجى . وهو لا يشك أن الوحوش الضارية سبقته إليها . . . ولسنا نعرف على وجه التحقيق أن الذى اكتشف أمريكا جاءها سائراً على المياه المتجمدة ، أو فى قارب على طول الشواطئ العارية للتندورة . وكل ما نعرفه أن أول إنسان مات فى الأرض الأمريكية ولد أصلا فى دائرة القطب الشمالى الأسيوية . وأن مكتشف أمريكا كان لا يعرف الزراعة أو المعمار أو المعادن أو الغزل . وأنه كان يتدثر بجلود الحيوان وأن عدده وآلاته كانت الحجارة والعظام ، لأنه كان من رجال العصر الحجرى . ويقول العلماء إن الذين جاءوا إلى أمريكا استوطنوها منذ خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد من الشمال القطبى . وأن هؤلاء الغزاة الأوائل انحدرت من أصلابهم المجموعات المتباينة من الهنود الأمريكيين . ولقد كشفت الكشوف الحديثة أن العائلات البدائية ارتحلت ذهاباً وإياباً بين سيبريا وألاسكا . وفى داخل أمريكا من ألاسكا فى الشمال إلى « تييردل فيجو » Tierradel Fuego فى الجنوب . استقر المقام بهؤلاء الرواد فى أكواخ من أغصان الأشجار ، وفى الكهوف ، ثم توزعت هذه العائلات توزيعاً جغرافياً نحو الجنوب وتكونت أمريكا . وفى يوم ١٢ أكتوبر عام ١٤٩٢ هبط كولمبوس على سان سلڤادور فى جزر الهند الغربية[1] ، ثم اتخذ طريق سلفه من المغامرين أمثال كورتيز Cortès وبيزارو Pizarro من الغزاة الإسبانيين . وهنالك كانت فى انتظاره حضارات

(١) وهى إحدى جزر بهاما فى الشمال الغربى .

غير أوربية ، وشعوب مختلفة عن شعوب أوربا . ووراء الجزر التى نزل إليها كانت هناك ثقافات ممتازة أيضًا . وقال الشيوخ لكولمبس ورجاله إن أقوامًا جلودهم بيضاء سبق أن هبطوا عليهم وجاءوا معهم بأسرار الحضارات القديمة . ولم يحدث وصول الإسبان أى دهشة فى المكسيك أو بيرو . وأصبح من المؤكد أن هذا الجزء من أمريكا لم تسكنه قبائل الصيادين الذين جاءوا من سيبيريا ، بل سكنته قبائل من الرجال المثقفين الذين درسوا التاريخ ، وألّفوا الكتب ، وبرعوا فى العلوم الطبية . واستطاع علماؤهم من رجال الفلك ، أن يرصدوا حركات الأجسام السماوية بدقة متناهية ، ويحسبوا مراكز خط الاستواء ، ويميزوا بين النجوم الثابتة والكواكب . وكان تقويمهم أضبط وأدق من تقويم أوربا فى عصر كولمبس ، وحددوا سنة المايا Mayan Year رقم صفر بالسنة ٣١١٣ قبل الميلاد . وكانوا — مثل قدماء المصريين — يجيدون عمليات التربنة أو جراحة الجماجم بدون أن يقتلوا المريض ، وكانت هذه الجراحة غير معروفة بجراحى أوربا حتى بعد عصر كولمبس بكثير . . .

اختلط الأمر على الإسبان عند غزوهم لهذه البلاد ، بل لقد فقدوا أعصابهم ، وظنوا أنهم وصلوا إلى بعض الحضارات الممتازة للهند البعيدة . ولصقت كلمة الهنود التى أطلقها الإسبان على سكان تلك البلاد باللغات الأوربية وهى إحدى أخطاء الإسبان . . .

وفى جنوب أمريكا ازدهرت حضارة مماثلة هى حضارة الإنكا Inkas وقد غزا هذه البلاد حفنة من الإسبان بدون أن يطلقوا رصاصة واحدة ، لأن

تعاليم تلك القبائل القديمة كانت تتوقع دائمًا قدوم البيض ذوى اللحى الطويلة ، من وراء البحار ، لأن أجدادهم جاءوا بالحضارة فى الأزمنة البعيدة ووعدوا بأن يعودوا . هكذا سجلت كتبهم أو تعاليمهم المحفوظة عن ظهر قلب أبًا عن جد وكابراً عن كابر . . .

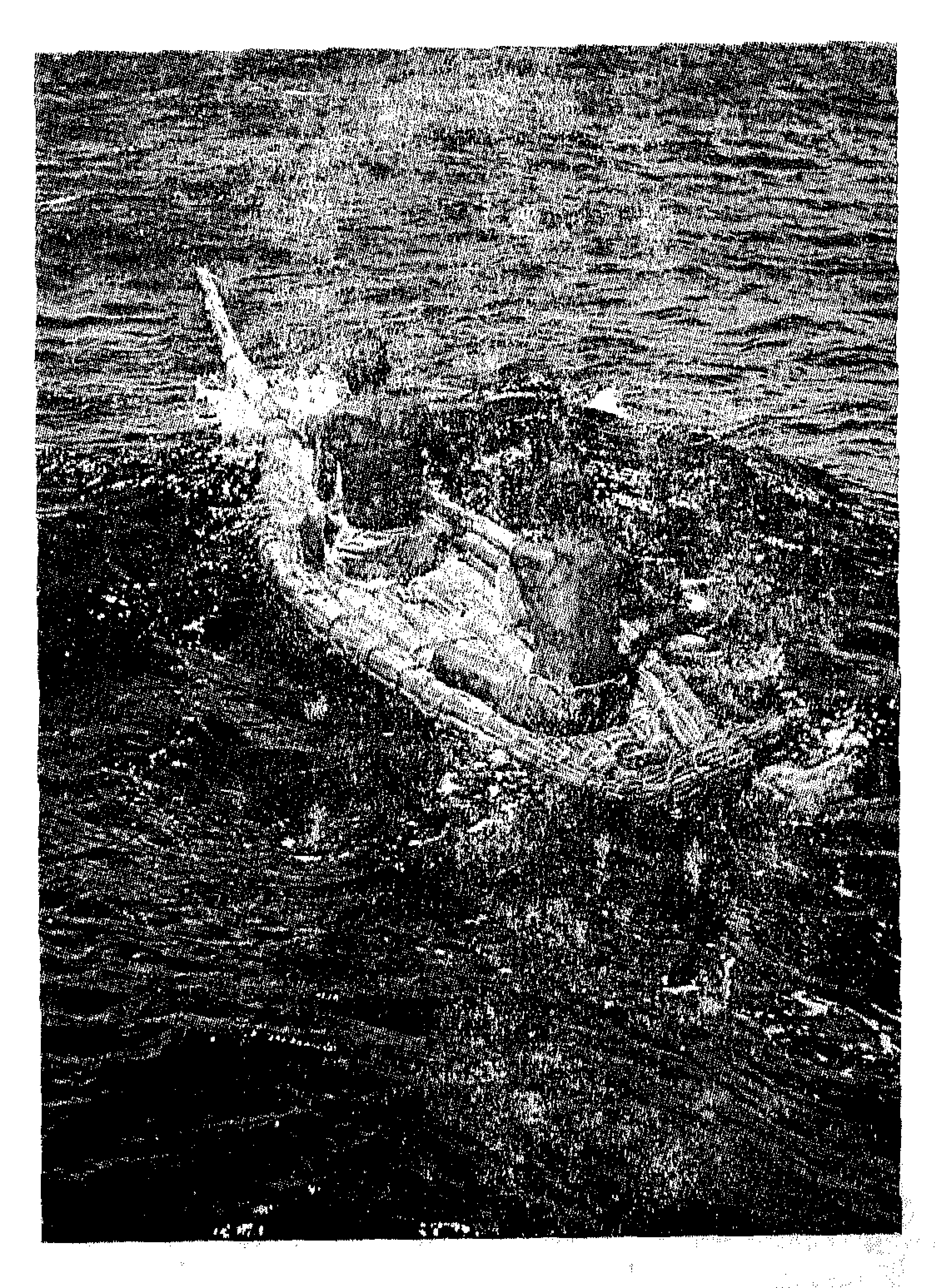
وراودنى سؤال : ما الذى حدث فعلا فى المكسيك وبيرو قبل أن يذهب كولمبس وأصحابه إلى أمريكا ؟ وهل بذر رجال العصر الحجرى البذور التى عثر عليها الإسبان فيما بعد ؟ أم أن أبناءه وأحفاده وقفوا على الشاطئ يستقبلون بعض المغامرين ؛ الذين جاءوا إليهم عبر الأطلنطى بدون تذاكر عودة ، قبل أن تنتشر الحضارة فى أفريقيا وآسيا ، ثم إلى سواحل أوربا البربرية . والرد الصحيح على سؤالى الحائر هذا هو : إذا كانت الحضارة قد بدأت فجأة بدون تطور محلى ، فلا بد أنها استوردت بطريقة ما من وراء البحار . ولكن المشكلة الوحيدة هى أن الحضارة العظيمة التى بدأت تزدهر فى العالم الجديد ، قبل السيد المسيح بعدة قرون ، مر عليها ألفان من السنين . بعد أن توقفت الثقافات أو ماتت تمامًا فى المناطق الهامة من العالم القديم . كما كان الحال فى مصر مثلا . وعليه فإن الرد على هذا السؤال ليس بديهيًّا على الإطلاق . . .

إذن لماذا نبنى قاربًا من أعواد البردى ؟ لقد زرت مصر مرات كسائح عندما وقع نظرى على قوارب البوص مرسومة على جدران وادى الملوك . وميزت القارب فى الحال الذى كان يشبه النوع العام لقوارب بناة الأهرامات فى شمال بيرو ، التى رسموها على أوانيهم الفخارية عند ما

ازدهرت الحضارة في جنوب أمريكا . كما رأيت مثل هذه القوارب في المحيط الباسيفيكي في جزيرة إيستر Easter على جدران قرية أورنجو Orongo فهذه المتوازيات الثلاثة جزيرة إيستر وبيرو ومصر لا يمكن أن تكون كل واحدة منها قد بلغت نفس الحضارة المستقلة . ولعل الأغرب أن سكان جزيرة إيستر كانوا يطلقون اسم « رع » على الشمس ، وعليه لا يمكن أن يكون ذلك مصادفة لأن رع كان اسم الشمس في مصر القديمة . وفي جزيرة إيستر وبيرو ومصر كانت تقام التماثيل الضخمة تشريفًا وتحية لإله الشمس . فهل كان هناك اتصال بين هذه الأطراف أو كان الأمر مجرد مصادفة ؟ . . .

منذ قرون مضت عند ما سيطرت السفن على البحار أصبحنا نؤمن بأن الشعوب القديمة المتحضرة كانت تتحرك بدون قيود . فالرحالة ماجلان Magellan وكابتن كوك Captain Cook وغيرهما قد دارا حول الأرض أكثر من مرة . فلم لا تكون هذه الشعوب قد طافت حول الأرض على قوارب أو سفن من أي نوع كانت . ونحن في هذا العصر الذى اخترعت فيه النفاثات والمحركات القوية أصبحنا نؤمن بأن العالم في العصور القديمة كان كبيراً وكبيراً بعد أن أصبح الآن صغيراً وصغيراً .

لاحظ العالم البريطاني « بيرسي سميث» Percy Smith أن الحضارات القديمة للمكسيك وبيرو تتشابه كثيراً مع حضارة قدماء المصريين ، وأن اتصالا عبر المحيط قد كان بين الشعبين . وعندما عثر على نفس التشابه في جزيرة إيستر وبعض أجزاء في بيرو ، رسم خطًا من



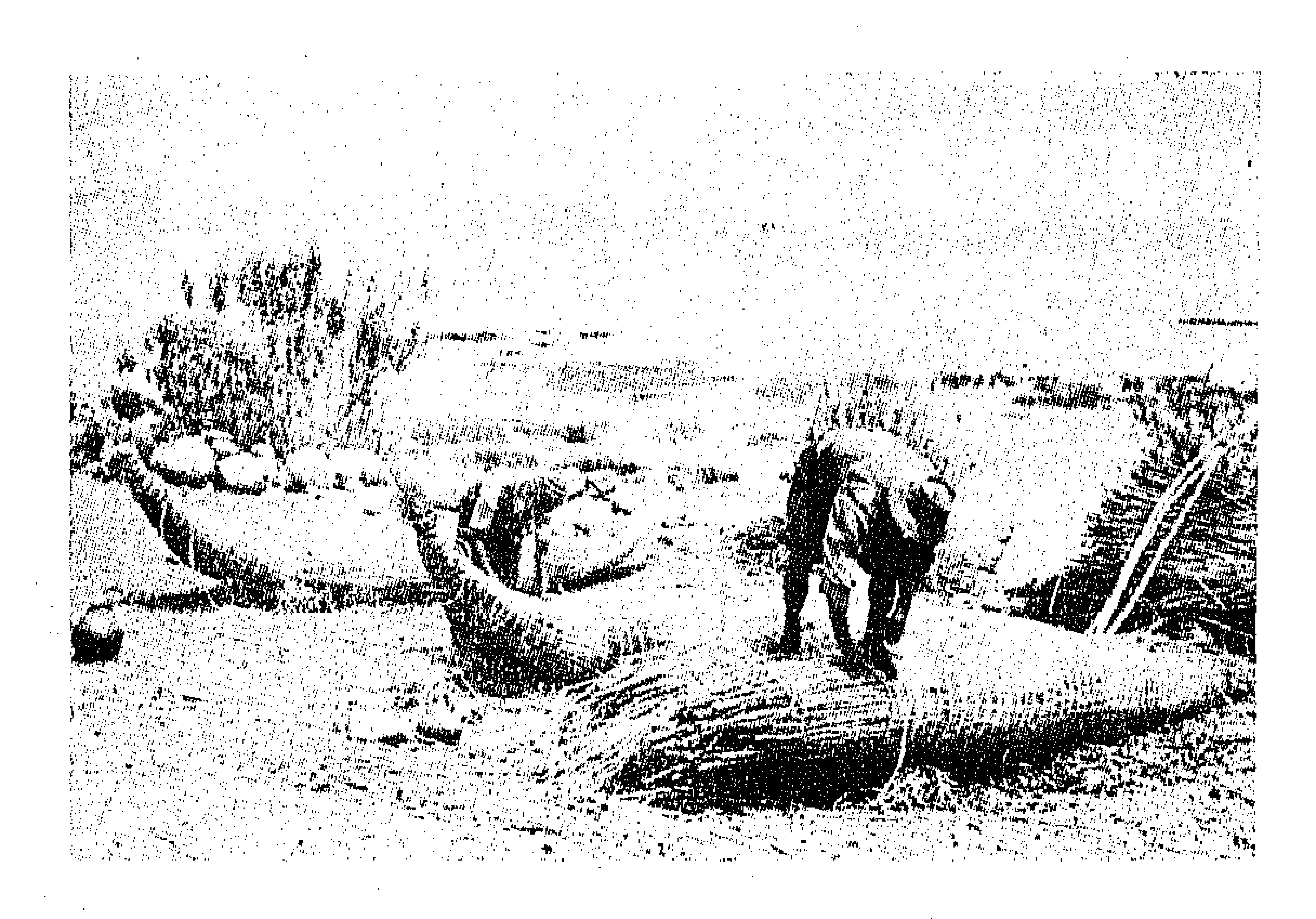
قارب مصنوع من نبات البردى ينطلق به صيادان من سكان جزيرة إيستر

مصر عن طريق البحر الأحمر والمحيطين الهندى والباسيفيكى ، وعلى طول الطريق إلى پولينيزيا Polynesia وجنوب أمريكا . وعن هذا الطريق أو الخط ، كما قال ، وصل عابدو الشمس إلى أمريكا عن طريق جزيرة إيستر . . .

وهز بعضهم رءوسهم وقالوا إن الرحلة من مصر إلى جزيرة إيستر لا معنى لها — برغم أن جزيرة إيستر أقرب إلى مصر عن طريق أمريكا ، منها عن طريق الهند . فإذا أبحر المصريون القدماء ٢٥٠٠ ميل نحو الشرق لوصلوا إلى الهند عابرين نصف العالم إلى جزيرة إيستر . . . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إذا كان الأمريكيون الجنوبيون القدماء قد أبحروا ٢٥٠٠ ميل غربًا من سواحلهم لعبروا جزيرة إيستر كما فعلنا فى رحلتنا عبر الباسفيكى حيث قطعنا ٤٣٠٠ ميل من ساحل أمريكا الجنوبية مارين بجزيرة إيستر فى نصف رحلتنا . . . هذه الجزيرة التى استعمرها الإنسان من قديم الزمان ، تقع على بعد نحو ألفى ميل غرب شيلى ، اكتشفها الأوربيون فى عام ١٧٢٢ وقد سميت بهذا الاسم لأن الهولندى الذى اكتشفها وصلها يوم عيد الفصح وسماها البيولينيزيون « صرة العالم » لأنهم هبطوا إليها من قوارب كبيرة ووجدوا بها ملاحين ، وقد حفروا قوارب ضخمة من البوص ، وعليها صوارى على جدران الجزيرة . وعلى هذه القوارب رجال لهم رءوس كرءوس الطير ، وهى نفس الرموز التى وجدت فى بيرو ومصر لعبادة الإله رع إله الشمس .

عند ما خطر ببالى قوارب البوص فى جزيرة إيستر فكرت فى بناء

قارب من أعواد البردى. وكنت قد رأيت قوارب من هذا النوع قبل أن أزور الجزيرة . بل لقد استخدمتها فى بحيرة تيتيكاكا Titicaca Lake فى مرتفعات الأنديز Andes ، عند ما كنت هناك أدرس حضارة أمريكا الجنوبية الحجرية . وتعجبت من قدرة هذه القوارب على حمل الكثير من الأثقال والتى تستخدم بوفرة لعبور الأحمال عبر البحيرة إلى أطلال مدينة تياهواناكو Tiahoanaco. وككل إنسان قرأ تاريخ إمبراطورية إنكا عرفت أن هذه القوارب كانت الأثر الباقى لوسائل النقل المائية قبل وصول كولمبس إلى أمريكا . وقد عم استخدامها على طول الساحل الباسيفيكى لبيرو عند ما هبط الأسبان عليها . وأصغر هذه القوارب كان على هيئة خرطوم الفيل لا يتحمل غير ثقل رجل واحد وكان بعضها يربط إلى بعض لنقل الماشية والخيول . . .



قوارب من البردى حيث يصنعها الصيادون فى بحيرة تيتيكاكا

الباب الثانى

قارب من نبات البردى

فى جزيرة إيستر شاهدت قارباً من تلك القوارب القديمة المصنوعة من أعواد البوص ، وهى تندفع فوق الأمواج وعليها أربعة من كبار الصيادين ، وتنزلق بسرعة لا تعبأ بالريح . ولاحظت شبهاً كبيراً بينها وبين القوارب التى رأيتها تمخر عباب بحيرة تيتيكاكا وشبهاً أكبر بقوارب حضارة الإنكا القديمة ، التى نقشتها شعوب موشيكا Mochica القديمة على أوانيهم الفخارية السيراميك على الساحل الباسيفيكى لجنوب أمريكا . . .

لجزيرة إيستر تاريخ مثير ، فهذه الجزيرة التى وجدها الأوربيون عارية عاقراً يعيش فيها بعض المتوحشين على البطاطا ، وقد هجروا معابدها وتماثيلها الضخمة ، التى أقيمت فى أمكنة متفرقة . وكانت فى الأصل غابة من الغابات غطت جدران البركان الخامد الذى يظهر عليها الآن . . . وفى هذه البقعة الخضراء وسط أمواج المحيط الزرقاء هبط على الجزيرة بناءون مهرة قبل أن يعرف الأوربيون المحيط الباسيفيكى بأزمنة سحيقة . وأشعل هؤلاء البناءون النار فى الغابة فهطلت ذرات السناج والدخان على البحيرات الموجودة فى البركان الخامل ، ورسبت فى القاع مع لقاح أشجار النخيل والغابة . وكان الغرض من حرق الغابة إنبات حقول من البطاطا

مأكولهم الرئيسى . وكذلك لبناء منازلهم الصخرية . ومعابدهم ذات الدرجات التى تشبه مبانى بيرو القديمة ومصاطب مصر . وتجاهل البناءون الأشجار التى سقطت . وانصرفوا عنها ، لأن فنهم كان مقتصراً على الحجر وليس على الخشب . وكانت أحجام الأحجار التى يقطعونها كبيرة فى حجم عربة سكك حديدية . وكانت تنقل من طرف الجزيرة إلى طرفها الآخر ، وهى مرفوعة على نهايتها . . . والغريب أن العلماء وفقوا إلى اكتشاف هام ، وهو أن الرواد الأوائل لهذه الجزيرة أحلوا محل النباتات والغابات التى أبادوها ، نباتات مزروعة جلبت بذورها من وراء المحيط . فالبطاطا الأمريكية جاءت إلى الجزيرة وما جاورها من جزر بولينيزيا من بيرو وقبل أن يصل كولمبس إلى أمريكا . . . كما نمت أعواد البوص أو « بوص توتورا «Totora» أو حصيرة من هذا النبات فوق سطح بحيرة البركان الخامدة وقد استخدمها أهالى بيرو فى صناعة القوارب الصغيرة والكبيرة على السواء وكذلك فى تسقيف بيوتهم وفى صناعة الحبال . . .

وفى شهر يناير عام ١٩٦٦ أعلن أحد علماء التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية بجامعة كاليفورنيا أن قوارب البوص فى بيرو القديمة تشبه قوارب البردى لمصر القديمة ، وأن الحضارتين القديمتين متشابهتان فى أكثر من وجه برغم اختلاف الطبيعتين . فنفس الحضارة التى وجدت فى مصر وشرقى البحر المتوسط وجدت أيضاً فى بيرو . وإذا كانت مصر فى أفريقيا وبيرو فى أمريكا فمعنى هذا أن محيطاً واحداً كان يفصل بين القارتين هو المحيط الأطلسى . واستخدمت الحضارتان قوارب ورقية أى من أعواد

البردى أو البوص . ولكن هل يستطيع قارب من هذا النوع أن يمخر عباب المحيط الذى يفصل بين القارتين ؟ واحتدم الصراع بين المفكرين . . . فإذا كانت المكسيك وبيرو قد حصلتا على حضارة من وراء البحر فأى بحر يكون وعن طريق أى مراكب أو سفن ؟ ولم يستطع واحد من هؤلاء المفكرين أن يمدنا بالرأى السليم ، أو الرد الصحيح . وازداد الصراع حدة عند ما استقر الرأى فى النهاية على أن المحيط الأطلنطى لم يعبره إنسان



قارب من البردى حيث يكثر استعماله فى المكسيك

قبل كولمبس . ولكن تاريخ الفايكنج لا ينكر أن النرويجيين كانوا أول من وصلوا إلى أيسلاند ، ثم إلى الساحل الجنوبي الغربي لجرينلاند حيث عاشوا زهاء خمسة قرون قبل أن يعبر كولمبس المحيط إلى أمريكا . . . وقد تركوا وراءهم أطلالاً من المزارع والمدافن والكنائس. وكانت مستعمرة جرينلاند تدفع الضرائب إلى ملك النرويج . إن المسافة عبر شمالي الأطلنطي من النرويج إلى جرينلاند، كانت مساوية للمسافة بين جنوبي الأطلنطي من أفريقيا إلى البرازيل . وكانت المسافة بين جرينلاند وأراضي أمريكا لا تزيد على مائتي ميل . ويقول بعض المفكرين إن أحداً لم يفكر في قطع هذه المسافة القصيرة على الإطلاق ، ولكن كتابات الفايكنج ذكرت عكس ذلك ، فالرحالة « بچارني هرچولفسون » Bjarni Herjolfsson كان أول من عبر الأطلنطي . ولكن سفينته اختفت في الضباب . وبدلاً من أن يهبط على الساحل الطويل غير المعروف الذي اكتشفه عاد إلى جرينلاند واشترى سفينته فيما بعد « ليف إيركسون » Leif Ericsson الذي أبحر في عام ١٠٠٢ مع خمسة وثلاثين من رجاله حيث كانوا أول من وضعوا أقدامهم على الشاطئ في مكان أطلقوا عليه اسم ، ڤينلاند vinland . وهناك أقاموا بعض البيوت، وقضوا الشتاء قبل أن يعودوا إلى جرينلاند . وفي عام ١٠٠٣ قام أخوه « ثورڤالد » Thorvald بنفس الرحلة ، وبعد عامين قتل بسهم أطلقه عليه أحد المواطنين . فدفنه الرجال في ڤينلاند وعادوا إلى جرينلاند . تبعت ذلك عدة محاولات لاستيطان ڤينلاند ، لكن غارات الهنود المتكررة أجبرتهم على العودة إلى

جرينلاند ومنها إلى أوربا كما ذكرت سجلات الڤايكنج .

ولكن أين ڤينلاند هذه وما هو الدليل على أنها توجد فى أرض أمريكية ؟

فى أقصى الطرف الشمالى « لنيوفاوند لاند » وجدت آثار للڤايكنج الذين حاولوا استيطان المنطقة فى حوالى عام ١٠٠٠ بعد الميلاد . وكانت هذه الآثار لبيوت تناثرت حولها قطع الأخشاب المحروقة . . . ووجدت فى الأبواب مسامير حديدية ، وعجلة لغزل المنسوجات الصوفية .

وكان هنود هذه المنطقة لا يعرفون الحديد أو الغزل . وقد قام بهذه الاكتشافات العالم النرويجى « هلج انجستاد » Helg Ingstad . وبذلك أثبت بالدليل القاطع وصول الڤايكنج إلى هذه المنطقة البعيدة فى نيوفاوندلاند ، وأنهم وصلوا إلى أمريكا بعد عبورهم المحيط الأطلنطى ، وسجلوا هذا الوصول قبل أى إنسان آخر . . . وبرغم أن أقدامهم لم ترسخ فى أمريكا إلا أنهم وصلوها من الشمال المتجمد قبل أن يعبر كولمبس خطوط الطول الاستوائية .

ولكن عبور المحيط كان يحتاج إلى سفن قوية . وإذا كان إنسان قد جاء من أفريقيا ، ورسخت قدمه فى أمريكا ، فمن المؤكد أن هذا الإنسان قد علم الهنود كيف يبنون بيوتهم من قوالب الطوب ، وكيف يكتبون على الورق . ثم كيف يبنون السفن التى تمخر عباب المحيطات والبحار المفتوحة . وما كان بحار يستطيع أن يعبر الأطلنطى ومعه المهندسون المعماريون والفلكيون الذين يستطيعون بناء الأهرامات من غير أن يحضر معه بعض

بناة السفن والمراكب . وقبل السيد المسيح بألفين وسبعمائة سنة تعلم المصريون كيف يبنون المراكب الخشبية ذات الهياكل المفرغة والأسطح والكبائن ذات الألواح الخشبية الأنيقة المرتبة. ولكن فكرة بناء هياكل المراكب من الألواح الخشبية لم تصل إلى الهنود إطلاقاً. وفى جميع أجزاء أمريكا ، قبل كولمبس ، لم يتعلم أى إنسان أن يبنى المراكب إلا من أعواد البوص . وكانت هذه حقيقة لا يمكن تجاهلها بأى حال من الأحوال . كل ما كانت تمتلكه أمريكا فى ذلك الوقت سفن ، أو قوارب من البوص ، أو قوارب من جذوع الشجر ، لأن نبات البوص أو البردى لم ينم فى مصر وحدها بل فى أجزاء متفرقة من العالم .

قمت بزيارة أخرى إلى الأنديز لألقى نظرة ثانية على قوارب الهنود ، وطرت فوق بحيرة تيتيكاكا فوق سقف العالم والتى ترتفع ١٢٥٠٠ قدم فوق مستوى البحر ، تحيطها كوكبة من القمم الثلجية ترتفع بدورها إلى تسعة آلاف قدم نحو السماء الزرقاء . وفوق الهضبة من خلفنا تطل أطلال عاصمة الإنكا القديمة مركز الثقافة القديمة مدينة تياهواناكو وهرم « أكاپانا » Akapana والتماثيل الضخمة لملوك غير معروفين محفورة فى الصخور . . .

وفى الريح الشديدة كان بعض هنود الآيمارا Aymara يروحون ويجيئون بقواربهم ، وهم يصطادون السمك . وعلى البعد كان الإنسان يرى أشرعة القوارب وقد ملأها الهواء ، وقد بنيت القوارب بدقة متناهية ، فكانت

تنزلق على الماء بسرعة وترسو على الطين ، ويخرج منها الصيادون ومعهم ما اصطادوه من السمك . . .

ومثل هذه القوارب لا تزال تبنى بالمئات وبنفس الطريقة التى كان يبنى بها أجداد هنود الآيمارا ، والكوشوا Quechua قواربهم القديمة منذ أربعمائة عام ، عند ما جاء الأسبان وعثروا على أطلال تياهواناكو بأهراماتها المدرجة . وكان البدائيون من الهنود يظنون أنها وجدت هكذا منذ فجر التاريخ بعد أن بناها رجال الڤيراكوشا Viracocha . وقد وصفهم المؤرخون على أنهم رجال بيض بلحى ، وكان ملكهم يدعى كون تيكى ڤيراكوشا Con-Tiki-viracocha » رسول الشمس على الأرض . وكان رجال الڤيراكوشا قد استقر بهم المقام على جزيرة الشمس فى بحيرة تيتيكاكا . وتقول الأساطير إنهم أول من بنى أول قارب من البوص ، وأن الرجال البيض جاءوا إلى الجزيرة على قوارب من البردى عند ما ظهروا لأول مرة أمام الهنود ، الذين كانوا فى ذلك الوقت لا يعرفون شيئاً عن عبادة الشمس ويجهلون الزراعة والعمارة . فهذه الأساطير التى كتبها الأسبان منذ أربعة قرون لا تزال حية فى أذهان الهنود . وفى كثير من الأحيان كانوا ينادوننى باسم « ڤيراكوشا » ومعناها « الرجل الأبيض » .

لقد أعجبت كثيراً بمنظر هذه القوارب وهى تتهادى فوق صفحة البحيرة ، وتذكرت الزمن الذى كانت تنقل فيه كتل الصخور من « الكابيا Kapia » البركان الخامد على الشاطئ الآخر . ولم يكن هناك ما يدعو إلى الشك بأن الحضارة التى اختفت كانت متصلة بطريقة ما

بمراكز الثقافة الأمريكية الأخرى ، والتى وجدها المكتشفون الأمريكيون مهجورة مندثرة فى الغابات الاستوائية ، من المكسيك إلى الهضبة المحصورة بين بيرو وبوليفيا . وقبل أن تتحول بنايات تياهواناكو إلى أطلال كانت عاصمة لأقوى إمبراطورية فى العالم امتد نفوذها إلى بيرو والأجزاء المجاورة لأكوادور وبوليفيا وشيلى والبرازيل والأرجنتين ، أى على طول ساحل يمتد إلى ١٥٠٠ ميل فى جزر جالاپاجوس Galapagos على بعد ستمائة ميل من الشاطئ . وقد أقنعتنى الآثار التى وجدتها فى جزيرة إيستر أن الحضارة بلغتها قبل العصر البولينيزى .

ولكن أين كانت الجذور ؟ هل كانت هنا فى أمريكا ؟ أو فى الجانب الآخر من الأطلنطى ؟ الحقيقة أن السفن الخشبية كانت معروفة فى جانب واحد من الأطلنطى . ولكن قوارب البردى أو البوص كانت معروفة على الجانبين . . . وكان فن بناء هذه القوارب موروثاً ، من مصر وبيرو . وليس ذلك فقط ، فقد رأيت قوارب مماثلة فى المكسيك ، وفى جزر البحر الأبيض المتوسط ، وعلى ساحل الأطلنطى ، فى المغرب تحت جبل طارق . وكانت القفزة من المغرب إلى المكسيك غريبة تماماً كالمسافة بين مصر وبيرو . . .

لذلك قررت بناء قارب من البردى

الباب الثالث

مع هنود غابات « الصبّار »

لمحت الشاطئ من بعيد ، وأنا أطل برأسي من وراء أشجار الصبّار ، التي ارتفعت من فوق ، كأنها أنابيب أرغن ، وتشعبت أغصانها في عالم كله أشجار . ومع ذلك فقد كانت الأرض التي أسيرّ عليها رملية جرداء ، ليس بها عشب أو زهور ، غير تلك التي تطل علينا من العناقيد المتدلية من أوراق الصبار ذاتها . . .

كانت الغابة التي دلفت إليها صامتة . لا همس ولا حفيف من الأشجار التي تناثرت هنا وهناك . وفجأة قفز أرنب جبلي من بين ظلال أشجار الصبّار التي عكستها أشعة الشمس الغاربة ، ثم رفع الأرنب أذنيه ، ونظر حوله قبل أن يختفي تمامًا . وعلى الممر نفسه الذي اختفى عنده الأرنب ، ظهر سنجاب مخطط وهو يجري بأقصى سرعته ، ثم توقف فجأة ، ورفع ذيله في الهواء ، ثم تكور واختفى بدوره بين أشجار الغابة . وعلى غصن شجرة جلس نسر لا يبدي أية حركة ، حتى اقتربت من شجرته ، فنشر جناحيه وطار بنعومة في الهواء وحلق فوق الغابة . وعند ما نقلت قدمي سمعت صوت حذائي وأنا أشق طريقي في الغابة المزدحمة بالقوارض والثعابين وحشرات الصحراء المختلفة .

وفى هذا الهدوء المطبق التقطت أذناى صوتًا فاتراً واهيًا ، ولكنه طن كأنه صوت أسد يزأر . وكان هذا إنذاراً بوجود خطر قريب منى . . . وليس الإنسان فى حاجة إلى أن يرى حية من ذات الأجراس لكى يقفز جانبًا ويفر من موت محقق . . . لقد أخرجت الحية لسانها والتهبت عيناها ، وارتفع ذنبها قليلا وهى تضرب به الأرض على أهبة أن تضرب ضربتها المميتة القاتلة . وكانت الحراشيف الجافة كأنها قطع من البلاستيك ترتعش من الغضب . فنظرت حولى بسرعة أبحث عن عصا ، ولكنى لم أر شيئاً غير أشجار الصبار ذات الأشواك القوية ، وأخيراً لمحت شجرة صبّار ميتة فقلت فى نفسى : « فى هذه الكفاية » . فانتزعت غصنًا قويًّا وانهلت به على الحية فأصبت منها مقتلا وظل جسدها يرتعش ويدق أجراساً لمدة طويلة . كان المفروض أننا نبحث عن بناة القوارب فى غابة الصبّار هذه . ولم يكن أمامنا شجرة واحدة نستطيع أن نتسلقها لنعرف معالم الطريق الذى يجب أن نسلكه . وكان صديقى المكسيكى « رامون براڤو Ramon Bravo قد اختفى فى الغابة على أمل أن يجد منها مخرجا . فى حين جلست زوجته أنچليكا Angelika فى العربة فى بطن الوادى ، حيث فقدنا معالم الطريق أكثر من عشرين مرة ... ومن مكانى الذى وقفت فيه لمحت الشاطئ والبحر وانعكاس ضوء الشمس على صفحة الماء ، والجبال الزرقاء البعيدة ، وكان فى هذا الكفاية لنبدأ رحلتنا قبل مغيب الشمس . . .

وشرعنا نسير ، وفجأة دلفنا إلى أرض فسيحة ، وظهر البحر أمامنا بأمواجه الفضية وشاطئه الذهبى ، ولمحنا ظهور خمسة حيتان وهى تبرز من

الماء وتتجه نحونا ، ثم تختفى فى خليج كاليفورنيا . وعلى الجانبين امتدت صحراء سونورا Sonora . وكان علينا أن نعثر على كوخ واحد به أثر للحياة . . . وطال بنا السير حتى ظهرت من بعيد إحدى القرى الهندية بمجرد أن غرق قرص الشمس فى الأفق البعيد وراء الجبال الزرقاء . وكانت القرية الهندية من سلالة قبائل « سريس » Seris القوية التى عرفت الزراعة والعمارة عن طريق اتصال رجالها بالرجال البيض . . . وكان سكانها لا يزيدون على ستين فرداً ، وقد استقر بهم المقام فى هذا المنعزل الرملى لبونتا شوكا Punta chueca . لم يبد الهنود أى اهتمام بنا ، بل انصرف كل واحد إلى عمله . وقد جلسوا فى مجموعات صغيرة . واقترب منا أطفال القرية وسرعان ما اندفعوا نحو كوخ لينادوا على شوكو المترجم صديق رامون الذى جاء إلى هذه القرية مرة ليصور بعض حيوانات الخليج . وأخبرهم رامون أنه جاء بصديق ليرى بعض قوارب البوص [١] . . . ولكن الهنود كانوا قد أبطلوا صناعة هذه القوارب منذ سنوات . . .

وجاء الليل فاضطررنا أن ننام على الأرض فى حظيرة الصيد ، ومن حولنا الهنود يتسامرون طول الوقت حتى داعب الكرى أجفانهم فناموا عند ما اختفت النجوم من السماء . وفى الصباح استيقظنا من نومنا ، وأخذنا نساوم الهنود على صناعة قارب من البردى ، ولكنهم قالوا إن الأمر يحتاج إلى وقت طويل ، والبردى على مسافة بعيدة من مكانهم فى جزيرة القروش .

---

(١) يقصد البردى .

وقررنا الذهاب إلى جزيرة القروش لنرى نوع البردى الذى ينمو فيها . . . وبعد مرور بعض الوقت هبطنا إلى الجزيرة المزدحمة بالأيائل ، والغزلان ، والأرانب ، والسحالى ، والثعابين والقوارض . ولكن الإنسان لم يسكنها منذ تركتها قبائل « السريس » Seris إلى داخل البلاد . وسرنا مسافة طويلة فوق الجزيرة نبحث عن البحيرة التى ينمو عندها نبات البردى ، حتى اقتربنا من الجبال التى تحيط بها . وعبر نصف النهار ، والشمس محرقة ، وبدأنا نصعد مرتفعاً ، حتى بلغنا قمته فوقفنا نلهث وننظر إلى ما تحتنا . وعلى مسافة من مكاننا رأينا منظراً غريباً . بحيرة ممتلئة بالماء ، وحولها نبات البردى ، سامقاً بأعواده فى الهواء فأسرعنا ، نجرى نحو الماء ، لكننا لم نر غير أعواد البردى ، فشق المرشد الهندى طريقه وراح يقطعها بسكين حادة ، ونحن من خلفه نتبعه كظله ، حتى بلغنا منطقة بها صخور عليها طحالب ، وظهرت أمامنا بحيرة فأسرعنا نعب من مياهها لنطفىء ظمأنا بعد مسيرة طويلة تحت وهج الشمس .

لقد اكتسبت خبرة من هذه الرحلة الغريبة ، وعرفت أن أفراد قبائل السريس كانوا يبنون قواربهم من أعواد البردى المنتشرة حول البحيرة ، لأنه كان من العسير عليهم أن يعثروا على خشب فى صحراء سونورا ، فى حين كان الشاطىء يعج بأعواد البردى . وربما أخذوا هذه الصناعة عن أجدادهم أو من البحارة الذين زاروا هذه المنطقة فى الماضى السحيق . وكانوا أيضاً يبنون هياكل قواربهم من الأشجار القوية ويغطونها بجلد الحيوانات لأن عجول البحر كانت تغطى صخور جزيرة القروش . إذن

فمن الذى علم رجال قبائل السريس بناء قواربهم ؟

تركنا البحيرة ، وتسلقنا الجبال ، بعد أن قطع الهنود المرشدون حزماً كبيرة من البردى ولم نضل طريق العودة لأن الهنود كانوا قد تركوا علامات على طوله . . . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب عند ما بلغنا قاربنا . . . ولكن حزم النبات لم تكف لبناء قارب ، بل فقدت الأمل تماماً لأن هذه المنطقة لا تصلح لبناء قارب يعبر بنا المحيط الأطلنطى نظراً لصعوبة الحصول على أعواد البردى ومشقة الوصول إليها عبر غابات الصبّار .

وعند ما بلغنا القرية الهندية الصغيرة خرج الرجال لاستقبالنا وبرز رجل هندى عملاق من قبائل السريس الذين وصفهم الأسبان بأنهم حقّاً من العمالقة . ثم اتجه نحو قاربه العتيق المصنوع من نبات البردى ، وراح يرممه ويشد حزمه بحبال قوية ، حتى استعاد القارب شكله الأصلى فوقفنا طويلا نمعن النظر فيه . ثم سحبه الهنود وانطلقوا به نحو أمواج البحر ثم امتطوا ظهره فانساب بين الأمواج رشيقاً سريع الحركة . وعند ما عادوا كانوا قد اصطادوا سلحفاة ضخمة . لكن القارب المصنوع من نبات البردى كان قد امتص قدراً كبيراً من الماء فجره الرجال وتركوه فوق الرمال ليجف . . .

كانت هذه هى المكسيك ، حيث كان أجداد قبائل السريس يبنون قوارب البردى ويمتطون بها صهوة البحر . . . ومن حولهم جيرانهم يستخدمون نفس القوارب فى تنقلاتهم من إمبراطورية الإنكا فى الجنوب إلى كاليفورنيا فى الشمال . وكذلك فى البحيرات الداخلية

فى المكسيك ذاتها . . . وفى بداية القرن الماضى رسم الرسام الفرنسى ل . شورى Choris ثلاثة من الهنود يجدفون على قارب مصنوع من نبات البردى على طول ساحل ميناء سان فرانسسكو . وفى المكسيك أيضًا رؤيت قوارب من البردى تشبه قوارب بيرو فى البحيرات وفيما لا يقل عن ثمان ولايات طبقًا لما رواه عالم المايا المعروف دكتور إريك طومسون Dr. Eric Thompson

وقفت أنظر إلى القارب الورقى الذى سحبوه نحو رمال الشاطىء ليبقى هناك بجوار كوخ المندى العملاق ، وكأنه آخر مشهد فى فصل غير مكتوب عن قوارب البردى التى انقرضت فى المناطق الوسطى لأمريكا الشمالية . . .

الباب الرابع

مع البدو فى قلب الصحراء

أفريقيا . . . أجمل اسم لأجمل قارة . . . جدار من الغابات الخضراء وأغصان الأشجار الاستوائية القوية تتحطم تحت أقدام الزنوج وهم يحملون المؤن ويشقون طريقهم فى الغابة الكثيفة . والزراف والقرود تتحرك هنا وهناك وزئير الأسود كقصف الرعود . لم أدخل إلى قلب أفريقيا من قبل . ففى قلب وسط أفريقيا وفى حجرة صغيرة فى فورت لامى عاصمة جمهورية تشاد جئتها زائراً فى قارب من البردى عبر الأطلنطى . إن نهر شارى Shari الوحيد الذى وقع عليه نظرى يتدفق بنعومة نحو الشمال . ولكن الماء الذى يحمله من الغابة لا يصل إلى البحر البعيد . . . ومن الغابات الواسعة بالقرب من حدود الكونغو فى الجنوب يمر النهر عبر السافانا ونصف الصحراء فى طريقه إلى بحيرة تشاد على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى وهنا تبلغ الحرارة درجة كبيرة حتى إن الماء يتبخر بسرعة . . .

كانت هذه هى البحيرة التى أردت أن أزورها ، وبرغم سهولة العثور عليها فى الخريطة فإن الوصول إليها من الأمور الشاقة . وفى شمالها ينمو نبات البردى ، ويغطى مساحة كبيرة منها وعلى شواطئها يبنى الزنوج

قوارب تشبه القوارب البردية التى تشبه إلى حد بعيد قوارب جنوب أمريكا وجزيرة إيستر . وفى مصر كانت هذه الصناعة قد اندثرت تماماً ولكن هنا فى قلب أفريقيا لا تزال قائمة . . .

ومن فورت لامى ركبنا سيارة جيب فى طريقنا إلى قرية بول Bol التى تقع على البحيرة . وكان الطريق وعراً شائكاً عبر الصحراء فى الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى. وكانت درجة الحرارة فى أثناء النهار ترتفع إلى ٥٠ درجة مئوية (١٢٢ فارنهايت) فى الظل ، وقد انبطحت أمامنا كثبان الرمال وقد انغرست فى بعضها عربة الجيب . وبعد مجهود مضن عنيف كنا نشق طريقنا من جديد ، حتى لاحت لنا البحيرة من بعيد . وخطر لنا أن نترك السيارة ونجرى ونلقى بأنفسنا إلى المياه الحلوة ولكن السائق (بابا) نصحنا بأن نتريث حتى نصل إلى قرية (بول) Bol فإذا واصلنا السير بسرعة دخلناها قبل حلول الليل لأن الصحراء أشد خطورة فى الليل منها فى النهار . . .

وفى قرية (بول) انتهى بنا المطاف وتجمع حولنا القرويون . ثم ظهر رجل زنجى ضخم سألنا من نكون ، ولماذا جئنا ، وما الهدف من هذه الزيارة عند حلول الليل . . . وكان الرجل متوعك المزاج فهو عمدة (بول) مسئول عن ألفى شخص بها من الزنوج والعرب وليس فى حاجة إلى مزيد من المتاعب .

قضينا ليلتنا فى ضيافة العمدة (أدوم رمضان) Adoum Ramadan وفى الصباح رأيت لأول مرة قارب البردى فى قلب أفريقيا وهو يتهادى

على صفحة بحيرة تشاد بجوار جزيرة عائمة من نبات البردى الذى تفتحت زهوره فى اتجاه السماء الزرقاء . . .

أخذنا العمدة إلى السلطان (مبودو مبامى) M'Bodou M'Bami القائد الدينى وأقوى رجل فى المنطقة بأسرها ، والسلطان ينحدر من أصلاب قبيلة بدوما ، وعند ما علم برغبتنا فى بناء قارب من أعواد البردى ، أرسلنا إلى أحد رجاله (عمر مبولو) Omar M'Bulu وهو من خبراء صناعة القوارب الورقية يجيد اللغة العربية بجانب لغته الأصلية (بدوما) Pouduma وعلمنا الرجل كيف نبنى قارباً من البردى يتسع لاثنى عشر رجلا كذلك القارب الذى تداعبه الرياح على شاطىء البحيرة . وجلسنا على الأرض نرقب عمر وموسى ورجالا آخرين تطوعوا للقيام بالعمل ، ورأيناهم ينزعون الأغصان القوية التى تشبه الجلد من شجر الدوم ، ويلفون بها أعواد البردى فى براعة وسرعة متناهية كأنها الحبال . . .

كانت أعواد نبات البردى فى تلك البقعة من قلب أفريقيا طويلة تزيد على مترين ، وبقطر بوصتين ، ولم تكن مفرغة أو جوفاء كأعواد البامبو بل أسفنجية . وما هى إلا ساعات قليلة حتى كان أمامنا قارب طوله اثنى عشر قدماً . إذن فمن الذى علم هؤلاء الرجال هذه الصناعة ؟ ربما تعلموها من أجدادهم الذين تعلموها بدورهم من سكان وادى النيل . . . وفى هذه القرية الصغيرة النائية علمنا أن قوارب كبيرة من البردى تبنى بين وقت وآخر لنقل أربعين طناً من الأثقال والبضائع من مكان لآخر أو من شاطىء لآخر . وقال موسى ، أحد الذين صنعوا لنا قارب

البردى ، إنه اشترك مرة فى بناء قارب نقل أكثر من ثمانين رأساً من الماشية ، وآخر أبحر بأكثر من مائتى رجل دفعة واحدة . . . ولم أصدق الرجل فى بادئ الأمر ولكن عند ما قفزت إلى القارب الصغير ومعى موسى وعمر وعبد الله . تحمل القارب ثقلنا فذهلت من قدرته .

وهكذا قضينا النهار كله فى بناء القارب ثم تجربته . وفى الليل عدنا إلى مكان راحتنا . استلقيت على الأرض مع زملائى نحصى النجوم فى السماء حتى غفلت عيوننا بعد عمل يوم طويل شاق . . . ولكن ما كدت أغمض عينى ، حتى سمعت صوت طبول تدق من بعيد ، فجلست على الأرض ، ورحت أنصت ، وحاولت أن أوقظ زملائى ، ولكن النوم كان قد غلبهم فاستسلموا له ، ولم يعبأوا بمحاولاتى . . . فتركت المكان ، ورحت أبحث عن مصدر الصوت فى الظلام . وسرت وقتاً لا بد أن يكون طويلا ، حتى بلغت حائطاً كانت تدوى من ورائه الطبول . فوقفت أنظر إلى دائرة تجمع حولها الرجال ، وراح بعضهم يرقص فى داخل الحلبة بالسيوف ، ثم اشتركت فتاتان فى الرقص الإيقاعى الجميل ، ورأيتنى أنضم إلى الرقص بطريقة آلية . فاتجهت نحوى الأبصار ، وعلت دقات الطبول . وأغلب الظن أنى رقصت وقتاً طويلا لأن الدائرة المحتشدة بالناس بدأت تنفرط كحبات المسبحة ، ولم يبق غيرى وأربعة رجال . وهنا بدأت منافسة حادة بيننا . ارتفع صوت النفير ، وعلت دقات الطبول ، وبدأنا نرقص فى نشوة ، وقوة وجنون ، حتى بدأ الرجال يتساقطون واحداً وراء الآخر . وتجمع الناس من جديد ليلقوا نظرة على

ذلك الرجل الأبيض الذى هبط عليهم يرقص رقصات سريعة على دقات الطبول ... ولمعت العيون من حولى ؛ وجوه أسود من الليل وأسنان أبيض من الثلج وجباه تتساقط عليها حبات العرق من طول الرقص ، والإجهاد . وفجأة شعرت بلطمة قوية على كتفى ، فالتفت فإذا به عمر قريب السلطان ، وقد انفرجت أساريره عن ابتسامة كبيرة . . .وهبط على عمر كملك من السماء ورأى الرجال أنه يتحدث إلى كصديق فأخذوا يتسللون فى الظلام واحداً وراء واحد . . .

وفى الصباح انتشرت الشائعات عن مقدرتى كراقص (التوم توم) Tom-Tom dancer وعن المبلغ الكبير الذى دفعته للعازفين وضاربى الطبول . . .

اضطررنا أن نمكث فى قرية بول عدة أيام حتى تنتهى بعض المتاعب التى اتخذت طريقها بين العرب والزنوج . وأثناء هذه الأيام أكثرنا من النزهة فى قوارب البردى حتى وصلت ذات يوم طائرة خاصة لتنقلنا إلى فورت لامى . . .

ودعنا عمر وموسى وعبد الله وطلبت إلى السلطان أن يسمح لهم بالسفر إلى مصر عند ما نقرر بناء قارب من أعواد البردى لنمخر به عباب المحيط الأطلنطى ... ووافق السلطان ووافق الرجال كذلك، وانطلقت بنا الطائرة إلى عنان السماء ، وتركنا قرية بول وبحيرة تشاد ، وقوارب البردى والجزر الطافية الخضراء ، فوق البحيرة الكبيرة . . .

استغرقت الرحلة ساعة واحدة وصلنا بعدها فورت لامى حيث انتظرنا بها عدة أيام على أمل أن يصل إلينا السائق بابا ومعه القارب الصغير وبعض المعدات التى لم تستطع الطائرة الصغيرة حملها . . . ومضت الأيام ولم تظهر سيارة الجيب فاتصلنا بقرية (بول) فأفادنا العمدة أن السائق غادر القرية منذ أيام فأرسلنا عدة سيارات تبحث عنه ، وطائرة صغيرة ، ولكن جهودنا كلها باءت بالفشل . وعاودنا الكرة من جديد ، وأخيراً جاءتنا الأنباء أن السيارة سرقت ، وأخفيت خلف شجرة كبيرة فى الطريق الصحراوى الطويل . . . وحاول السائق أن يبيع ما فيها من معدات تصوير لكن أحداً لم يبد اهتماما بها . ولما كان القارب غير ذى موضوع فقد ألقوا به فى الصحراء . ولم يستطع الرجل غير بيع وقود السيارة . . . وعادت إلينا معدات التصوير . أما الذى حدث للسائق بابا بعد ذلك فلم نستدل على شىء من أخباره . . .

وعادت إلينا معدات التصوير كاملة . والغريب أنه قبض على عبد الله ذلك الرجل الأمين الذى قدم لنا خدمات جليلة فى أثناء وجودنا فى قرية بول بتهمة التجارة فى الرقيق .

وهكذا تركنا قلب أفريقيا حيث شاهدنا فى تلك البقعة النائية كيف يبنون قوارب البردى بنفس القدرة والكفاءة التى كانت تبنى بها القوارب فى كل من مصر وأمريكا الجنوبية وجزيرة إيستر . . .

الباب الخامس

فى وسط الرهبان السود
عند منابع النيل

لكى نبنى قاربًا من البردى ، كان علينا أن نبحث عن نبات البردى . ولكن أين نجده ؟ هل نجده فى تشاد عند بحيرة الصحراء ؟ إن الطريق إليها وعر شاق . فلا أنهار تشق طريقها فى وسط أفريقيا إلى العالم المحيط . ولا طرق سهلة من أى نوع كانت . وكنت فى حاجة إلى أعواد كثيرة من البردى لا أستطيع نقلها على متن الجمال . حقيقة أن صناع القوارب يمكن أن يأتوا بالطائرة ، ولكن ليس هناك أعواد تكفى لبناء قارب كبير يتحمل رحلة المحيط . فتركت هذه الفكرة جانبًا ، واتجهت بنظرى إلى مصر . . . فالفرعون العظيم مسجى فى قبره ، وقوارب البردى من حوله منحوتة على جدران مقبرته الصخرية . . . الصخور فى الصحراء والبردى على شاطئ النهر ، والطمى يتدفق على ضفاف النيل فى أثناء جريانه من جبال إثيوبيا . . .

لقد أسس الفلاح المصرى حياته على الطمى . وصنع الصياد قاربه من البردى ، فى حين استخدم الفرعون الصخور ليخلد نفسه . وعلى أوراق البردى سجل أساتذة مصر وعلماؤها فصولا من حياة الإنسان الأول .

وكانت الصخور تنقل على قوارب مصنوعة من نبات البردى ، لذلك خلدت ونقشت على الصخور . وظهرت زهور البردى فى الفن المصرى القديم مرة ومرات ، حتى أصبحت رمزاً وطنياً للصعيد أو مصر العليا . وفى الأساطير اتحدت مع زهور اللوتس للوجه البحرى على يد حورس (الرجل الطائر). ابن إله الشمس رع ، عندما اتحدت مصر فى مملكة واحدة.

لكى نبنى طوفاً، كان علينا أن نفعل كما فعل رجال الإنكا ... التوغل فى غابات إكوادور للبحث عن أشجار فتية مليئة بالعصارة أولبن النبات . . .

ولكى نبنى قارباً من البردى كان علينا أن نفعل كما فعل الفراعنة . . الخوض فى مستنقعات البردى على طول شواطئ النيل ، وقطع أعواد البردى الطازجة . وعندما أراد فرعون مصر أن يبنى قارباً لم تصادفه مشكلة واحدة ، لأن بناة القوارب كانوا يعرفون كل شىء عن نبات البردى ، وصناعة قوارب البردى بعد أجيال طويلة من الخبرة . وكانت القوى العاملة غير محدودة ، ومواد البناء متوفرة تنمو فى أعداد لا حصر لها خارج بوابات القصر . ومستنقعات البردى على ضفتى النيل تمتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى عدة أميال داخل الصحراء المصرية . . .

ولكن كان هذا فى الماضى السحيق . وأعواد البردى لا تنمو الآن فى مصر . هكذا أكد لى جورج سوريال ، وجورج من رجال الضفادع البشرية يعرف النيل معرفة تامة وأذكر أنه قال : هناك صخور كثيرة إذا أردت أن تبنى هرماً ولكن ليست هناك أعواد من البردى تكفى لصنع عربة أطفال . . .

وعلى صفحة النيل كانت القوارب الشراعية تتهادى ، وقد تناثرت أشجار النخيل على الضفتين ، وامتدت الحقول الخضراء على مرمى النظر . ولكن لم يرفع عود بردى واحد قامته ليعكس صورته على صفحة الماء. فقد انقرض البردى من مصر فى القرن الماضى . . . ولا أحد يعرف السبب ، ربما أن الآلهة قد استعادت إحدى هباتها القديمة لوادى النيل ، ونزعتها من جذورها. ولم تبق غير أعداد كبيرة من قطع الحجارة هنا وهناك ووراء سد أسوان . وعند ما اختفت أعواد البردى من الوادى اختفى كذلك بناة القوارب إلى الأبد . . .

على ظهور الإبل والجياد ، وفى السيارات ، والقطارات ، والقوارب ارتحلنا على طول نهر النيل . ونزلنا ضيوفًا على أصحاب هذه القوارب التى ولد عليها أصحابها. قوارب من الخشب على ظهورها خيام من القماش هى بيوت صيادى الأسماك أو عالمهم . . . وشاهدنا كيف يطهو أصحاب هذه القوارب طعامهم فى أفران مفتوحة من الطين على ظهر القارب الذى لا يقبل الاشتعال وكيف يجففون بعض أنواع الطعام تحت حرارة الشمس الحارقة .

ونهر النيل طويل، طويل يمتد عبر مصر وعبر السودان إلى منابعه البعيدة فى أوغنده وإثيوبيا . وهناك فى البحيرات عند منابع النيل ظل نبات البردى ينمو كما نما هناك عند بحيرة تشاد البعيدة . . .

ولا بد أن الشعوب القديمة المتحضرة ارتحلت إلى مسافات بعيدة



قارب من البردى وعليه اثنان فى مستنقعات سردينيا

وعريضة لأن معظم الفراعنة الذين حكموا مصر ولدوا فى أثيوبيا البعيدة حيث منابع النيل الأزرق[١] . ولكن فى العصور الوسطى ظل نهر النيل الطويل منسياً . وأن منابعه الأسطورية كانت هناك فى جبال القمر الغامضة حتى استطاع الإيطاليون والبرتغاليون أن يكتشفوا المنابع العليا للنهر . وفى الوقت الذى نشط فيه الأوربيون كان كولمبس يعد لرحلته عبر المحيط لاكتشاف أمريكا . ولأول مرة عرف إنسان العصر الحديث أن

---

(١) بدأ حكم الأثيوبيين لمصر فى الأسرة الخامسة والعشرين ولم يعمروا طويلا (الناشر)

النيل الأزرق يتدفق من بحيرة تانا التى تقبع هناك عالياً فوق مستوى البحر فى هضبة أثيوبيا . . .

كان علينا أن نرتحل إلى أعالى النيل للبحث عن نبات البردى . وبرغم أن هذا النبات ينمو فى المغرب وجزيرة صقلية إلا أن كمياته لا تكفى لبناء قارب واحد . وأخيراً وصلنا مدينة أديس أبابا التى ترتفع عن مستوى البحر بثمانية آلاف قدم ، على هضبة جبلية خضراء تنتشر فوقها الزهور البرية الصفراء ترصع قلب الإمبراطورية العجوز .

وكان رفيقى فى هذه الرحلة المصور الإيطالى توزى Tosi . ومن أديس أبابا ركبنا طائرة صغيرة إلى بحيرة تانا . وقبل عصور الفراعنة الأوائل ، والنيل يفتت جبال إثيوبيا ويحمل معه معادنها لتزدهر الحقول فى مصر . وفجأة انحرفت الطائرة نحو قمم الجبال ، واختفى النيل من تحتنا ، ودوى فى الجو زئير يصم الآذان ، طغى على أزيز الطائرة . والتصقت معدتى بعظام ظهرى ، فأمسكت بالمقعد وأنا أنظر إلى السد فى مجرى النهر . فقد تمزق النهر العظيم الضخم وأصبح على هيئة حائط من الزبد الأبيض وتدفقت كميات عظيمة من الماء فوق قمم الجبال الممتدة أمامنا وعلى جانبينا ؛ وفوقنا وتحتنا ترعد وتصخب ، واختفت الشمس وراء الهوة المحيطة بنا . واعتدل الطيار بطائرته واستوى بها فوق النهر المتدفق فى قوة عارمة من شلالات « تينسيسات Tissisat » حيث تنحدر منها مياه النيل الأزرق أو تسقط من فوق الهضبة العالية المرتفعة . واندفعت بنا الطائرة إلى أعلى وعبرنا قوس قزح ملون عبر السماء الزرقاء وأصبح النيل أفقيًّا تحت أجنحة الطائرة . . .

وأخيراً هبطنا فى منطقة بحر دار ، وبعد دقائق كنا نصور المنظر الرائع أو الخط الذى يقسم بين عالمين أو عالم على مستويين. وكنا نعرف أنه على مسافة من هذا المكان توجد قوارب مصنوعة من البردى تماماً كما كانت توجد أيام فرعون مصر . وهنا كنا نأمل أن نعثر على كميات غير محدودة من نبات البردى ، على مسيرة يوم واحد من شلالات تيسيسات حيث يتدفق النهر العظيم من بحيرة تانا .

عندما بلغنا منابع النهر كان الليل قد أرخى سدوله. وبدت بحيرة تانا تتلألأ كأن صفحتها من الفضة الداكنة تعكس سحب المساء ، وظلال الجبال ، وقمم الأشجار . وهناك فى الخليج كانت تنساب ظلال طويلة على صفحة الماء على حافة الشريط الفضى ، ورأينا ستة قوارب من البردى تجرى على صفحة بحيرة تانا متجهة نحو الشلال . وفى كل قارب جلس شخص أو شخصان من الصيادين . . .

أما جبال أثيوبيا فكانت تبدو للمستكشفين فى القرون الوسطى ، وهم ينحدرون إليها من البحر الأحمر أو من سهول مصر . وترتفع بحيرة تانا بنحو ستة آلاف قدم فوق مستوى البحر تحيط بها الجبال التى ترتفع بنحو أربعة عشر ألف قدم . ومع ذلك فإن مساحة الماء كانت كبيرة جداً حتى إنك لا تستطيع أن ترى الشاطئ . وكانت البحيرة ذاتها داراً للرهبان السود الذين يعيشون فى جزرها ذات الأحراش والأدغال . وظلت قوارب البردى حلقة اتصالهم بالعالم الخارجى .

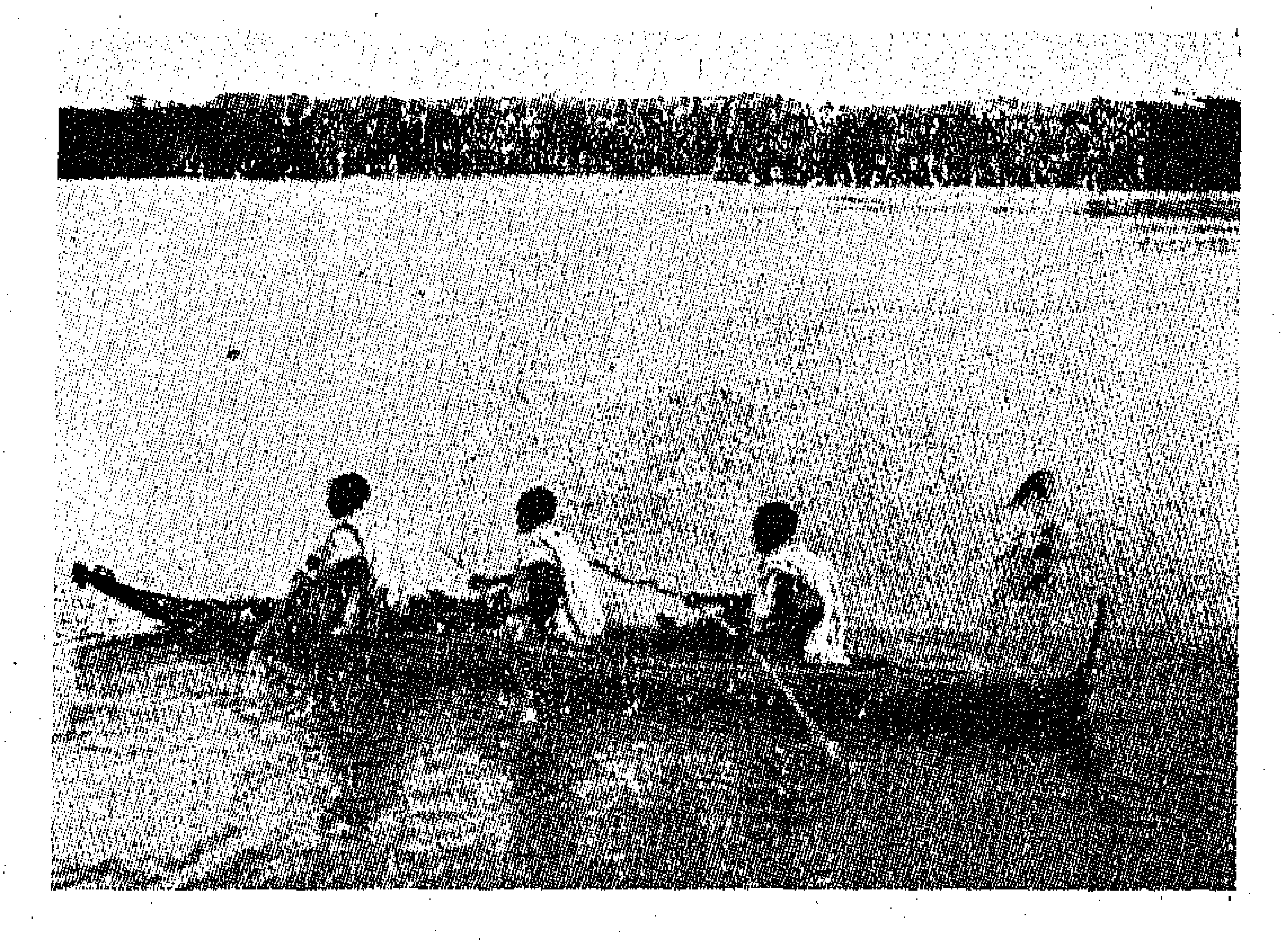
وعلى مسافة بعيدة فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وفى الوقت الذى

كانت تتهادى فيه قوارب البردى على بحيرة تشاد من بعيد . كانت نفس القوارب المنحنية بأناقة تتهادى على صفحة بحيرة تانا وقد حافظت على هيئتها المصرية القديمة . ولم يحاول صناع القوارب أن يطوروها أو يغيروا من شكلها ، فاحتفظت بمنظرها عبر ألوف السنين ، ومنذ فجر التاريخ ، وهؤلاء الرهبان السود الذين عاشوا عبر القرون ، حافظوا بدورهم على تقاليد حياتهم ، فارتدوا زياً مميزاً ، وبرغم أن أشجاراً ضخمة نمت فى الجزر التى يعيشون فيها ، فإنهم لم يبنوا القوارب الخشبية أو يصنعوها من جذوع الشجر . واستخدم أجدادهم قوارب البردى فى القرون الوسطى ، وهاهم يستخدمونها اليوم فى عصر الذرة . وقد جئنا لنتعلم من هؤلاء الرهبان السود ونستفيد من تجربتهم وهم وحدهم الذين يعرفون أين ينمو البردى بوفرة وكثرة . . .

إذن فمن هم الذين علموا هؤلاء الرهبان ؟

فى فجر المسيحية انتقل الدين الجديد من مصر إلى أثيوبيا قبل أن يتم الاتصال بين منابع النيل المنخفضة ومنابعه العليا بألف سنة ، وفى عام ٣٣٠ وفى الوقت الذى كانت فيه المسيحية تشق طريقها خلال القارة الأوربية كان المذهب القبطى المسيحى ينتشر من مصر حتى ربوع أثيوبيا . واستقر المسيحيون الأوائل فى مملكة أكسوم Axum القديمة هناك فوق جبال أثيوبيا شمالى بحيرة تانا . ثم فر معظمهم بعد ذلك إلى الجنوب . ومن الجزر المحصنة فى بحيرة تانا وزواى Zwai لينجوا من الاضطهاد . واختفى الرهبان السود فى بحيرة تانا بعد أن ظلوا بها سبعمائة عام ،

وانضمت إليهم أجيال جديدة من الشباب ، جاءوا من داخل البلاد إلى الجزر فى قوارب من البردى .



قارب بردى به ثلاثة من الصيادين فى بحيرة تانا

ذهبنا لمقابلة الرهبان السود . وكانت أول جزيرة هبطنا إليها دغلا كثيفاً من الأشجار وكان فى انتظارنا كاهنان تسربلا فى رداءين طويلين ، وظهرت أقدامهما عارية ولحيتاهما سوداوين كالليل. وعلى صدريهما تدلى صليبان فضيان من الطراز القبطى وانحنى الراهبان بهدوء وأشاروا نحو الطريق الذى سوف نسلكه إلى قمة الجبل . ورأينا بعض قوارب البردى وقد وضعت بعناية بجوار حائط كبير وبجوارها كميات من أعواد

البردى وقد جمعت على هيئة حزم . . .

صعدنا ممرًّا مرتفعًا حتى بلغنا كنيسة صغيرة فوق الجبل . وظهر عدد من الرهبان السود الأثيوبيين فى ملامحهم الدقيقة وأعوادهم الطويلة وأنوفهم المعقوفة ولحاهم الطويلة وكانت وجوههم صغيرة لشبان وفتية يرتدون أردية خشنة ، أقدامهم عارية أو فى صنادل مفتوحة ، يعيشون على أسماك البحيرة يصلون ويترنمون ويشكرون . . .

كانت الجزيرة تسمى « كوڤران جبرائيل » Covran Gabriel

ورأينا صورة للملاك جبرائيل وقد استل سيفه عندما أخذونا إلى داخل الكنيسة ، وجميع الكنائس القبطية فى بحيرة تانا تشبه كنيسة الملاك جبرائيل ، وقد زينت بصورة قديمة يرجع تاريخها إلى ثلاثمائة سنة أو أكثر . ورأينا كذلك صوراً لفرعون مصر وهو يغرق بجيشه فى البحر الأحمر وقد برزت خوذات القادة وأسلحة الجيش من فوق سطح المياه .

وجلسنا نتحدث عن قوارب البردى . فهى بالنسبة للرهبان السود كالخيل والجمال لفرسان الصحراء . . . وعرفنا أنهم يسحبون هذه القوارب بعد رحلاتهم النيلية لتجف فوق الرمال . وإلا امتصت المياه . وبرغم أنها لا تغرق مطلقًا إلا أنها تفقد قدرتها على الحمولة فى المسافات أو الرحلات الطويلة . وكلما ازداد القارب اتساعًا أصبح قادراً على الطفو . ولكن لا فائدة ترجى من بناء القوارب الكبيرة لصعوبة سحبها على الرمال لتجفيفها بعد كل رحلة تقوم بها . . . فتركنا الرهبان السود إلى جزيرة أخرى يطلقون عليها اسم نارجا (Narga) وكانت هذه الجزيرة مسطحة

ينمو فى وسطها نبات البردى ، مما شجع الرهبان الذين يعيشون فيها على استمرار تجديد قواربهم مرة كل سنة . . .

وفى البرج الحجرى الوحيد جلس راهب من الرهبان لم ينبس ببنت شفة أو يلفظ بكلمة واحدة بل لم يتحرك من مكانه مطلقاً فى أثناء زيارتنا . ولهذا البرج قصة . فقد بنته الإمبراطورة منتواب Mentuab منذ مائتين وخمسين سنة للعبادة والتأمل . وجلس صاحبنا الراهب فى أعلى مكان فيه منذ سنوات قليلة مضت بعد أن أقسم أن يجلس هكذا بلا حراك بقية حياته حتى يموت . . . ويعتبره إخوانه الرهبان قد يساً يجلس بين السحب العابرة لا يأتى بحركة واحدة . . .

وانتقلنا إلى جزيرة « داجا ستفانو » Daga Stefano وهى جزيرة مقدسة لا تطأها أقدام النساء ؛ ولا أميرات البيت المالك فقد حرمت عليهن الجزيرة إلى الأبد . . . وقد حاولت الأميرة منتواب أن تدلف إليها ، ولكن لم يسمح لها على الإطلاق منذ قرنين ونصف قرن من الزمان . وفى هذه الجزيرة طالعتنا قوارب البردى وحراس أشداء يحرسونها بالليل والنهار وسمعنا صلوات تنبعث من هنا وهناك . وأعواد البردى تنمو بوفرة غريبة ، وتتحمل المياه لمدة ثمانية أيام أو أسبوعين بدون أن تغرق أو تغوص فى الماء . ولكنهم قالوا إن أعواد البردى يجب أن تظل جافة بعيدة عن الماء . . . ولم تختلف معلومات رهبان هذه الجزيرة عن غيرها من الجزر التى زرناها فى بحيرة تانا . . .

ودعانا رهبان الجزيرة المقدسة إلى كهف من الكهوف الغريبة .

فدخلنا غرفة من غرف الرعب . فقد رأينا أكواماً من الجماجم البيضاء ، والصلبان العتيقة ، والأمتعة الخاصة بالأساقفة والمطارنة الذين ماتوا من أزمنة بعيدة . أما الكنوز الحقيقية فكانت لأكفان من الزجاج مغطاة بالقماش . وأزاح الراهب القماش جانباً فظهرت أربع موميات لأربعة من أباطرة إثيوبيا القدماء الذين حنطوا ليقضوا أبديتهم فى الجزيرة المقدسة وقد عبرت جثث هؤلاء الملوك بحيرة تانا العاصفة فوق قوارب من البردى ، تماماً كما كانت تنتقل جثث الفراعنة المحنطة فوق القوارب على صفحة النيل لدفنها . . .

خرجنا من هذه الزيارات للرهبان السود بحصيلة من الآراء والأفكار . فقد عرفنا أن قوارب البردى يجب أن تكون صغيرة ليسهل سحبها وتجفيفها بعد رحلة يوم واحد فى النهر . . . وكان هذا الرأى محالا بالنسبة للمحيط الذى ننوى أن نعبره على متن قارب مصنوع من نبات البردى . . أما القوارب الضخمة التى رأيناها فى بحيرة تانا ، فقد كانت مصنوعة من جزءين : قارب رفيع له مقدمة أو دفة منحنية . ووسادة سميكة من البردى لملء الفراغ . أما قوارب بحيرة تشاد فأكثر صلابة . والفرق بين الصناعتين أن رهبان بحيرة تانا حافظوا على الشكل الأصلى للقوارب الورقية فجعلوها خفيفة ، فى حين ركز صناع بحيرة تشاد جهودهم لكى تتحمل قواربهم الأحمال والأثقال . وفى طريق عودتنا إلى الشاطئ المقابل لبحيرة تانا عبرنا جزراً صغيرة ورأينا أعداداً من حيوان « سيد قشطة » ، وقال لنا الرهبان إن هذه الحيوانات تمقت قوارب البردى وتقلبها إذا حانت الفرصة

لأنه كان يتم صيدها عن طريق هذه القوارب منذ أزمنة غابرة فى التاريخ.

وفى أقصى الجنوب الغربى لبحيرة تانا عثرنا على مستنقعات من نبات البردى . . . ومن بين أعواد البردى الطويلة سبحت طيور عديدة الأشكال والألوان والأحجام . وفى هذه المنطقة ، كما فى غيرها من المناطق ، كان يغلب على ظن الناس أن قوارب البردى لا تستطيع أن تمكث فى الماء أكثر من أسبوعين وإلا امتلأت بالماء ، وغاصت تحت الأمواج . وكان الحل الوحيد أمامنا أن ننقل أعواد البردى من بحيرة تانا ، وكذلك



قارب بردى يصطاد به صاحبه فى بحيرة زواى

صناع القوارب من تشاد ، ونستخدم الرسوم التى ظهرت على مقابر قدماء المصريين للقوارب القديمة . . .

وفى اليوم التالى اتجهنا إلى بحيرة زواى بعد أن سلكنا طرقاً ضيقة ودورباً وممرات تسير عليها قطعان الحيوانات عند هجرتها كل عام من مكان إلى آخر . وعلى جانبى البحيرة رأينا مستنقعات من نبات البردى ومئات من القرود تلعب فوق أغصان الشجر وسمعنا أصوات الضباع والطبول من بعيد . وأخذنا ننتقل من جزيرة إلى أخرى ونفحص قوارب البردى المختلفة الأحجام والأشكال وندون ملاحظاتنا عن طريقة صناعتها . وعرفنا أن هذه القوارب تشبه قوارب البردى فى تشاد والمكسيك وبيرو . . .

وعدنا إلى مصر تتقاذفنا الهواجس وتختلط علينا الأفكار فهل عبور الأطلنطى من الأمور الضرورية والمخاطر التى يجب أن يقدم عليها الإنسان . . . هل تساوى الرحلة هذا العناء الكبير ؟ ! . . .

الباب السادس

عالم بناة الأهرامات

قال الوزير المصرى موجهـاً إلىّ الحديث ومعنا سفير النرويج :

— إن قارباً من البردى يغرق بعد أسبوعين . . . ليست هذه كلماتى بل هى لرئيس معهد البردى المصرى . ويقول علماء الآثار إن قوارب البردى لا يمكن أن تكون قد ارتحلت وراء مصب نهر النيل لأن البردى يذوب فى ماء البحر ويتحطم فى الأمواج . . .

فقلت معقباً :

— هذا هو ما نريد أن نجربه تماماً . . .

لم يكن أمامى أى شىء أستطيع أن أقدمه ، أو أعرضه على بساط البحث غير أن أقوم بالتجربة مهما كلفنى ذلك من مشقة وجهد . ولا سيما وقد وقف أمامى عدد من الخبراء فى نبات البردى . فوزير الثقافة ووزير السياحة قد بذلا مجهوداً كبيراً ، وعقدا اجتماعاً حضره عدد من مديرى المتاحف ورجال الآثار والمؤرخين وخبراء البردى . وعرض رئيس معهد البردى رأيه بصراحة وكرره ، ولكنه قال مبتسماً : بما أنك قد رأيت قارباً من قوارب البردى يمخر عباب الماء فأنا أول من يشجعك أن تقوم بالتجربة . . .

أما فكرة أن قارباً من البردى ، بالنسبة إلى رئيس متحف القاهرة ، يمكن أن يتهادى بين أمواج البحر فقد كانت فكرة طائشة لأنه قال : إن مصر كانت تصدر البردى إلى بايبلوس لصناعة الكتب فى العصور القديمة ؛ لأن القوارب الخشبية كانت تستطيع أن تعبر ذلك الركن الداخلى المفتوح من البحر المتوسط . أما أن يعبر قارب من البردى المحيط الأطلنطى فذلك يكاد يكون ضرباً من المحال ، وأى خبير يستطيع أن يقول إن مثل هذا القارب الورقى لا يستطيع أن يذهب وراء مصب النهر . . .

وتدرج النقاش من البردى إلى الأهرامات إلى الهيروغليفية على جانبي المحيط الأطلنطى وأخيراً قال الدكتور جمال محرز المدير العام للآثار المصرية[1] .

— إذا استطاع إنسان أن يبنى قارباً من نبات البردى على غرار القوارب المرسومة على جدران حجرات الدفن ، ويحاول أن يجربه فمما لا شك فيه أن هذه تجربة سوف تكون على جانب كبير من الأهمية . . .

وصرح على الأثر وزير الثقافة لمحافظ الجيزة أن يعطينا مساحة كبيرة عند سفح هرم خوفو لإقامة الخيام عليها لبناء القارب الورقى . وبشرط ألا نحفر فى الرمال ، وذلك لأننا سوف نكون فى وسط مقابر الأسر الفرعونية القديمة . وعندما انتهى الاجتماع ، وفى أسفل الدرج التقيت بوكيل وزارة السياحة عادل طاهر الذى هزّ على يدى بحرارة وقال :

---

(١) توفى بعد الرحلة .

يجب أن تبنى القارب فنحن من أنصار تجربتك لأنها سوف تذكر العالم بأن مصر تصنع الثقافة . . .

ووجدتنى أخيراً واقفاً مع السفير النرويجى « بيتر أنكر » Peter Ankar وهو يبتسم ابتسامة عريضة، فبجانب عمله كسفير لبلادى، يحب التاريخ القديم ويعشقه . وأخيراً جلست فى غرفتى ورحت أفكر . . . فليس أمامى وقت للانسحاب أو التراجع ، وعلى أن أقرر فوراً وبسرعة خاطفة لا سيما وأن مدخراتى لا تكفى للقيام بالمهمة . . . ولكن ناشرى هذا الكتاب ربما قامروا على نتيجة الرحلة أو المغامرة . فماذا يحدث إذا لم نخرج من التجربة بنتيجة مرضية ؟

داعبت ورقة صغيرة بين أصابعى . ومر أمامى شريط طويل من الذكريات ، الرهبان السود ، ورجال القبائل المختلفة ، والعلماء ، وخبراء البردى ، كل هؤلاء لم يقدروا للقارب البردى غير أربعة عشر يوماً فى الماء يغوص بعدها إلى الأعماق . ولكنى مكثت ساعات طويلة فى قوارب مختلفة من البردى . . . كما جلست فى قارب تفكك فى الماء وكاد يغرق . . . وكنت أعرف أن أعواد نبات « التوتورا » فى أمريكا أصلب من أعواد البردى تتحمل الرحلات الطويلة ولا تمتص الماء بسرعة كما يفعل البردى . . .

وأمسكت بورقة أخرى وقرأت ما فيها :

« عزيزى ثور فى إيطاليا :

هل تتذكر عبد الله دن تشاد ؟ إننى على أتم استعداد للحضور

لبناء قارب كبير مع عمر وموسى . ونحن فى انتظار أوامرك . . . وأنا أعمل حاليًّا نجاراً فى باستور آير بفورت لامى . . .

. . . مع تحياتى . . . عبدولاى جبرين Abdoulaye Djibrine (abdullah)

وارتسمت أمامى صورة عبد الله بوجهه الأسود الفاحم ، وضحكاته ، وآثار جرح على حاجبيه وأنفه ، وابتسمت للخطاب الرقيق ، وكان رائعاً من ذلك الرجل الأمى فى قلب أفريقيا الوسطى أن يبحث عن عنوانى ويدعونى إلى العمل . . . ولكن لماذا ترددت ؟ فعبد الله على أتم استعداد للحضور ومعه عمر وموسى . فهم يبنون القوارب الكبيرة لنقل الماشية عبر بحيرة تشاد ويعرفون عن قدرتها ما لم يعرفه أساتذة هذا العالم .

وهم على استعداد لبناء قارب يطفو على وجه المياه لعدة أشهر . لقد وضع خطاب عبد الله حدًّا لترددى وعلى أن أعتمد على رجال من تشاد . . .

وفى هذه الليلة أبرقت لصديق لى فى أديس أبابا ، يمتلك قاربين كبيرين فى بحيرة تانا ، وكنت قد اتفقت معه على أن يقطع مائة وخمسين متراً مكعباً من أعواد البردى يجففها ويحزمها فى الطرف الشمالى من البحيرة . ولهذا الرجل خبرة فى نقل الأثقال فقد سبق أن نقل حجراً أثريًّا وزنه ١٨٠ طنًّا من أكسوم إلى روما فى عام ١٩٣٧ . وقرر صديقى « ماريو بوتشى » Mario Buschi أن ينقل خمسمائة حزمة من البردى مسافة ٤٥ ميلا عبر جبال أثيوبيا من بحيرة تانا إلى البحر الأحمر . . .

لم يكن أمامى وقت أضيعه . فعيد الميلاد يقترب . وإذا كان علينا

أن نعبر الأطلنطى قبل موسم الأعاصير فيجب أن نبحر من أفريقيا فى شهر مايو . وظهرت أمامى مشكلة أخرى . فقطع أعواد البردى بهذه الكمية الضخمة سوف يستغرق وقتًا طويلا لأن المياه عالية فى بحيرة تانا فى ذلك الوقت . فطول العود الواحد يزيد على عشرة أقدام ، ويجب أن تقطع تحت الماء ، ثم تجفف فى الشمس وإلا تعفنت . بعد ذلك تأتى مرحلة شاقة أى نقلها عبر جبال أثيوبيا وأخيراً إلى البحر الأحمر . . . وقبل أن تصل إلى القاهرة لا بد من إقامة الخيام وإمدادها بكل وسائل الراحة عند سفح الأهرامات . فإذا تم بناء القارب كان علينا أن ننقله إلى أى ميناء أفريقى على ساحل الأطلنطى مستخدمين الميكانيكية المصرية القديمة فى إدارته والإبحار به بعد ملئه بقوارير الماء والطعام . والحق يقال ، كانت هناك ألوف الأشياء لا بد من إنجازها . . .

أرسلت البرقية إلى أثيوبيا ، وأخرجت ورقة وقلمـًا فلا بد من إدارة العجلة حالا والبحث عن بحارة ليشتركوا معى فى التجربة . .

وفكرت فى الحال فى البحارة الذين عملوا معى على طوف البلزا — كون تيكى — الذى عبرت به المحيط الباسيفيكى ، وكنا نتقابل بين وقت وآخر ونسترجع ذكريات الرحلة الغريبة — على هذا الطوف كنا خمسة من النرويجيين وسويديًّا واحداً أى ستة من الأسكندنافيين . ولكن على قارب رع ، قررت أن يكون عددنا سبعة من البحارة من جنسيات مختلفة من الأوربيين والأفريقيين . وأن يكون معنا خبير فى صناعة القوارب . ولما كان هدف الرحلة إثبات أن اتصالا قد تم بين الحضارتين القديمتين

لأفريقيا وأمريكا فمن الأفضل أن يكون معنا مصرى ومكسيكى ومندوب من الولايات المتحدة وآخر من روسيا وأن يرتفع علم الأمم المتحدة على القارب بعد الحصول على الإذن بذلك .

وفوق أبى الهول والأهرامات كانت النفاثات الحربية تهدر وترعد والمدافع تقصف على طول قناة السويس ، والجنود من القارات الخمس يتقاتلون فى حرب ضروس فى بلد أجنبى . . . وفى الأماكن التى لم تصلها الحروب كان الرجال يجلسون وراء الأزرار الذرية فى خوف من الدول الأخرى . ولكن على قارب مصنوع من نبات البردى كانت الصورة تختلف ، فبه مكان يلتقى فيه مندوبو الأمم والشعوب المختلفة ، ويعيشون تحت سقف واحد فى وئام وسلام . لقد كان الهدف من الرحلة أن تكون تجربة ودراسة لحضارة الإنسان التى بدأت تتصدع . فأرض أجدادنا لم يعد لها وجود فقد ازدحمت الأرض بالناس والنفاثات ورجال الفضاء . وأصبحت الكرة الأرضية محدودة يدور حولها الإنسان فى ساعة واحدة وأربعين دقيقة . ولم تعد الجبال وسلاسلها تفصل بين الأمم والشعوب ، ولم تعد الأجناس مستقلة أو معزولة فالكل متصل بالكل وأصبحت الأرض مزدحمة . وفى الوقت الذى يعمل فيه مئات الألوف من الخبراء فى تحطيم الذرة وإشعاعات ليزر ، فإن عالمنا الصغير يدور بسرعة تزيد على سرعة الصوت نحو مستقبل غامض ، لذلك شرعنا نعمل لتحقيق أمل قد يكون واهيًا . . .

إن فكرة الإقلاع بقارب من البردى محاولة لإثبات أن الرجال يمكنهم

أن يعملوا معاً فى سلام بغض النظر عن جنسياتهم ودياناتهم وألوانهم أو معتقداتهم السياسية . لهذا السبب بدأنا العمل . . .

تناولت قلمى وكتبت إلى عبد الله وطلبت إليه أن يحضر ومعه عمر وموسى ، وسوف أكون فى انتظارهم عند وصولهم إلى القاهرة . . . ولدهشتى وصلنى الرد بسرعة وطلب عبد الله شهادة عمل ومائة وخمسين ألف فرنك تشادى . وكان المبلغ ضخماً حتى إن البنك الأهلى فى إيطاليا لم يعرف سعر التحويل للفرنك التشادى . أضف إلى ذلك أن مشاكل عديدة سوف تقوم قبل أن يصل المبلغ سالماً إلى يدى عبد الله جبرين . لقد وثقت بهذا الرجل من أول وهلة ، وبدون أن أعرف عنه شيئاً ، غير أنه رجل فى رداء أبيض ظهر فى قرية بول ، ومن مكان مجهول ، ثم اختفى مرة أخرى ، بعد أن تطوع ليعمل مترجماً فى أثناء زيارتى لبحيرة تشاد . وكما يقول الرجل فحرفته نجار وإذا كان لا يخدعنى حقيقة ، فسوف يوفر على الوقت والمال . . .

تطور الموقف فبوتشى الإيطالى سيقوم بشحن حزم البردى ، وعبد الله وبناة القوارب سوف يصلون إلى القاهرة . فأسندت إقامة المعسكر عند سفح الأهرامات إلى صديقى المدرس الإيطالى « أنجلوكوريو» Angelo corio الذى اتصل بدوره بصديقه العقيد المتقاعد عطية أسامة ليحصل على الإذن الخاص بتفريغ شحنة حزم البردى فى منطقة السويس .

بدأت العجلات تدور حقاً فى دولة بعد أخرى ، وعثرت على إيطالى ومصرى ، وزنجى من تشاد ، على أن أختاره من بين الرجال الثلاثة

الذين سيصلون إلى القاهرة لبناء القارب الورقى ، ورابع من روسيا وخامس من أمريكا . . . جنسيات مختلفة من الشرق والغرب يجتمعون فى قارب واحد ليعبروا المحيط الأطلنطى فوق قارب ورقى . وقررنا أن نبدأ الرحلة من المغرب . وطرت إلى نيويورك حيث قابلت أوثانت[١] السكرتير العام للأمم المتحدة الذى اقترح على أن أقابل صديقه أحمد بن حيمة Ahmed Benhima مندوب المغرب فى الأمم المتحدة. وكان سعادة المندوب رجلاً ينحدر من أصلاب العائلات المغربية العريقة . . . وتناقشنا معه طويلا حول الميناء الذى سوف نبحر منه إلى أمريكا ، ووقع اختيارنا على ميناء آسفى Safi مسقط رأسه[٢] . وتعجب الرجل لماذا اخترنا هذا الميناء بالذات ؟ وكان ردنا أنه أقدم ميناء أفريقى وراء جبل طارق . ووراء هذا الميناء بالذات يدفع كل من تيار كنارى والريح التجارية أى شىء يطفو فى اتجاه أمريكا . . .

بعد زيارتى لأمريكا بأيام قليلة سافرت إلى ليما Lima فى بيرو . . . وكنت أجلس مع مجموعة من هنود « أورو » Uru وهم يطهون السمك فوق قارب على صفحة بحيرة تيتيكاكا . وكانت الجزيرة مزدحمة بأعواد البردى التى تكاثفت ونمت فوق بعضها بعضاً حتى إن الطبقات السفلى تعفنت . وكانوا يقطعون دائماً أعواد التوتورا Totora الطازجة. . . ومن

---

(١) ترك السكرتير العام للأمم المتحدة منصبه بعد الرحلة .

(٢) يسمى المغاربة الميناء « آسفى » وقد أطلقت عليه الصحف اسم «صافى» .

هذه الأعواد كانوا يبنون بيوتهم ويطهون بها طعامهم . وقد جئت إلى هذا المكان لأتحقق من أمر هام . . . فهنود الأورى مثل هنود الكوشوا والآيمارا Quechua & aymara الذين يعيشون على شواطئ البحيرة ذاتها ومثل زنوج البدوما فى تشاد لا يسحبون قوار بهم الورقية من الماء كل يوم لتجف . ومع ذلك فإن قواربهم لم تغرق مطلقاً فى مدى أسبوعين . حقيقة إن القوارب تهبط تدريجياً وكان السبب الرئيسى فى ذلك أن القوارب فى جنوب أمريكا مثل قوارب تشاد تشد عادة بحبال مفتولة قوية وتنسج بدقة تامة بحيث تختفى الفراغات بين أعواد البردى وتلتحم التحاماً . أما قوارب أثيوبيا فكانت مفككة تشد إلى بعضها بعضاً بحبال البردى ولذلك كانت تمتص الماء بسرعة . . .

غادرت جزر هنود أورو إلى الساحل الشمالى لبيرو فأمامى متسع من الوقت قبل أن يصل بناة القارب إلى القاهرة . . . وفى جنوب أمريكا رأيت أجمل هرم بنى بطوب محروق . وفى وادى تشيكاما chicama نهض الهرم من وراء الجبال الرملية فى قلب الصحراء . وقد سطا عليه سارقو القبور فأحالوه إلى ما يشبه فوهة بركان . ولعل أغرب ما فى الأمر أن هناك تشابهاً محيراً بين هذا الهرم وبين أقدم أهرام فى وادى النيل من النواحى المعمارية والفلكية وكذلك فى الحجم ومواد البناء . وكان هذا الهرم قد بناه أحد الكهنة الملوك عند ما بدأت الحضارة تزدهر فى بيرو وقبل أن تعقب حضارة الإنكا حضارة شيمو . وكان هذا الشعب الذى بنى أكبر هرم على الساحل هو شعب موشيكا . . .

إذن فمن هو شعب موشيكا هذا الذى بلغ شأواً عظيمًا فى المعرفة والحضارة ؟ يقول العلماء إن اتصالا ما قد تم بين جالبى الحضارة إلى الساحل الشمالى لبيرو وبناة الأهرامات فى المكسيك القديمة . ولكنهم لا يعرفون شيئًا عن أصلهم . وبين خرائبهم صور منحوتة على أوانى الفخار والسيراميك لرجال ملتحين وأفراد لهم قسمات قوية لسكان البحر الأبيض المتوسط .

وبعض هذه الصور تشبه رجال البربر الذين يعيشون فى مراكش اليوم .

ومن هناك اتجهت نحو أهرامات المكسيك لأرى بنفسى ما حدث لأمريكا قبل أن يصل إليها كولمبس . فهذه البنايات الضخمة، بمعابدها وأهراماتها، هى مخلفات بشر مثلنا، وصلوا إلى هذا المكان قبل كولمبس بألف سنة ، وأفسحوا لأنفسهم مكانًا فى الغابة الكثيفة ليستقروا على أرضها ويتخذونها مكانًا وملاذاً . فإذا تأملت فى هذه المبانى الضخمة وجدت أنها صممت بطريقة هندسية رائعة ، وعلى يد مهندسين معماريين غاية فى البراعة . وفى وسط الغابة بنى أهرام ضخم . فهل قرر الهنود العاديون أن يضعوه هناك ؟ أو أن أناسًا آخرين غير الصيادين البدائيين جاءوا من سيبيريا واختلطوا مع سكان المكسيك الأصليين وبنوا هذا الهرم فى الغابة ؟

كان كثيرون يظنون أنه لم يستطع شعب متحضر قبل كولمبس أن يقوم بهذه الرحلة ويصل إلى أقاصى الأرض . ولكن الذين استطاعوا ذلك كانوا من المتوحشين . وكان من الطبيعى أن البشر الذين خضعوا

لنفس عوامل البيئة قد خلقوا أشياء كانت تشبه بعضها بعضًا فى أماكن متفرقة من العالم . وكان من الطبيعى أن الناس فى كل من مصر والمكسيك قد وضعوا الأحجار بعضها فوق بعض حتى كونت أهرامات . . .

ولكن فى هذه الغابة لا يرى الإنسان عادة أثراً لصخور . . . فمن أين جاءت هذه الصخور إذن ؟ وكيف عثر عليها مهندسو هرم بالنكى Palenque ؟ . . . ربما حفروا أرض الغابة فعثروا على أحجار أو ربما ذهبوا إلى مكان قصى حيث نقلوا حائطًا من حوائط الجبل . . .

وفى بيرو هل كان من الطبيعى أن يضعوا حجراً فوق حجر ليقيموا أهرامًا على بعد ألف ميل من الصحراء ؟ كان لا بد لسكان بيرو أن يذهبوا بعيداً إلى جبال الأنديز ليعثروا على محاجر . وفى وادى موتشيكا حيث كنا ، كانت الحجارة من نوع ردىء مما اضطر بناة الأهرامات أن يصنعوا ستة ملايين قالبًا من قوالب الطوب لكى يبنوا هرمهم الذى تربع على مساحة قدرها أربعة آلاف ياردة مربعة ، وكان ارتفاعه مائة قدم . وفى بيرو كانت هناك أهرامات أخرى ضخمة كهرم « سيروكولورادو Cerro Colorado وفى بعض الحالات كانت قطع كبيرة من الحجارة تزن الواحدة من عشرين إلى ثلاثين طنًا تنقل من محاجرها ، لمسافة خمسين ميلاً من المكان الذى بنيت فيه هذه الأهرامات . ولا يعرف إنسان اليوم حقيقة البنائين أو المهندسين المعماريين الذين أقاموا هذه الأهرامات فى الغابة . فأطلق عليهم المؤرخون ورجال الآثار أهل الأولمك Olmecs وكانت وجوههم مستديرة وأنوفهم مفلطحة وشفاههم غليظة أشبه بالزنوج ،

فى حين كان بعضهم أصحاب ملامح دقيقة وأنوف معقوفة ولحى طويلة أشبه بالساميين . . .

ومن غرائب الأمور أن أهل الأولمك بنوا بيوتًا حجرية فى داخل الغابة . وفى الوقت نفسه بنوا بعض أهرامات من الطين — اللبن — ثم أكبر أهرامات بيرو ، ومثل تلك الأهرامات التى بنيت فى مملكة ما بين النهرين ومثل بعض الأهرامات التى بنيت فى وادى النيل . . .

وفى عام ١٩٥٢ عثر على اكتشاف خطير فى هرم الغابة هز الدوائر العلمية فى العالم كله ، وصدع بعض النظريات التى وضعها علماء الآثار عن حقيقة هذه الأهرامات . فقد عثر فجأة وبدون مقدمات على باب سرى ظهر خلفه ممر ضيق يهبط عنده درج حجرى ويمر خلال مركز الهرم . وفى نهاية الدرج ظهر باب حجرى ضخم فتح على مقبرة عظيمة بداخلها تابوت حجرى ضخم حيث كان يرقد فيه ملك كاهن عملاق . تمامًا كما كان الحال فى مصر القديمة .

وكان هذا الاكتشاف مثيراً لأن أهرامات المكسيك كانت تخلو من غرف الدفن . لذلك رفضت فكرة أن اتصالا كان قد تم بين شعوب المكسيك وفيا وراء المحيط الأطلنطى . وكان الشبه بين الأهرامات طفيفًا . فالأهرامات التى بنيت على جانبى الأطلنطى كانت لها أهداف مختلفة وأشكال مختلفة أيضًا . ففى المكسيك وبيرو كانت الأهرامات لها جوانب مدرّجة أما فى مصر فقد انحدرت جوانب الأهرامات بنعومة [١] . . .

---

(١) بدأ بناء الأهرامات فى مصر على هيئة مصاطب واستمر الحال كذلك نحو ألف سنة . (الناشر)

ولكن هذا القرار الذى اتخذه العلماء لم يكن صحيحاً لأن فى مصر أيضاً أهرامات مدرجة وأنها أقدم الأهرامات بل هى الهيئة الأصلية لها ، ليس فى مصر وحدها ، بل فى بلاد ما بين النهرين . وأن البابليين ، جيران مصر ، بنوا أهرامات مدرجة ثم أقاموا معبداً فوقها تماماً كما كان الأمر فى المكسيك . . . وهناك وفى قلب هرم مكسيكى يرقد كاهن ملك ادّعت عائلته أنها من سلالة الشمس ، فوضعوا على قبره حجراً عليه إله الشمس ، فى حين صمم المهندسون المعماريون الذين بنوا الهرم قاعدته بدقة فلكية تامة ، طبقاً لحركة الشمس تماماً كما كان الحال فى مصر . كما أنه وضع فى تابوت حجرى ضخم وثبت على وجهه قناع رائع كما كانت العادة فى كل من بيرو ومصر . ولم يكن القناع مصنوعاً من الذهب بل من حجر اليشم والعينان من المحار وإنساناهما من حجر السبج وهو حجر زجاجى أسود بركانى . وكان صاحب التابوت يعتقد فى الحياة الأخرى بعد الموت لذلك وضعت بجواره مجموعة نادرة من الأوانى والأطباق للأكل والشرب ، وقد زينت بالتيجان وقلادات للرقبة وأساور وحلقان مصنوعة من الصدف والأحجار الكريمة . وطلى التابوت من الداخل باللون الأحمر (السلاقون) وكانت بعض بقايا القماش لونها أحمر وهى ملتصقة بالعظام . وعلى طريقة المصريين أغلق التابوت بغطاء صنع من قطعة حجرية واحدة . وكان وزنه عدة أطنان وعرضه بارتفاع إنسان وأطول منه بضعفين . وكان الغطاء وجدران التابوت مزينة بأشكال الملوك الكهنة السابقين يرتدى بعضهم الزى الرسمى أو حلى مستعارة . . .

وكانت العادة تنص على أن يقتل ستة من الرجال ليصبحوا عبيداً للملك فى العالم الثانى ، ثم يغلق باب المقبرة بإحكام بصخرة عظيمة ويبنى درج صخرى سرى فى داخل الهرم يملأ فيما بعد بالصخور وقطع الحجارة إلى الأبد .

وفى داخل الهرم وخارجه راعى ملك الشمس ، وطَبَّق ، طقوس الدفن المصرية القديمة بحذافيرها . والاختلاف الوحيد بين بناة الأهرامات فى مصر والعراق أن أهل ما بين النهرين كانوا يقيمون معبداً صغيراً فوق قمة الهرم عليه نقوش هيروغليفية تماماً كما كان الأمر فى المكسيك . . .

ولعل أغرب ما فى الأمر أن مهندس هذا الهرم لم يفته أن يكيفه من الداخل بفتحة كانت تدخل باستمرار هواء نقياً إلى التابوت كما هو الحال فى أهرامات مصر . . .

* * *

انتشرت أنباء الرحلة فى كل مكان ، وأن حزم البردى قد وصلت إلى القاهرة وأن العمل أوشك أن يبدأ . وفى مدينة نيويورك وصلتنى برقية من زوجتى فزعت لها أشد الفزع كانت البرقية تقول : « قبض على عبد الله . . بنّاء القارب . . . فى بول . . . اتصل بى تليفونياً وفى الحال . . . » .

وعرفت من زوجتى التى تقيم فى إيطاليا أن خطاباً وصلها من عبد الله يقول فيه إنه لم يستطع الاتصال بعمر وموسى لأن السلطات اعتقلته . ووقعنا فى ورطة ففى خلال أحد عشر أسبوعاً لا بد أن ننزل القارب إلى

الماء قبل موسم الأعاصير . وهناك عند سفح الأهرامات المصرية كان الرجال ينتظرون قدومنا بنافد صبر . ولا بد والحالة هذه أن يذهب أحدنا إلى تشاد ليحضر بناة القارب إلى موقع البناء . ورأيتنى مضطرًّا أن أقوم بهذه الرحلة لأبحث عن عبدالله . وأخيراً عثرت عليه وبعد مجهود مضن عنيف ذهبنا إلى قرية بول لإحضار عمر مبولو وموسى بلومى وإعداد ما يلزم لسفرهما معنا إلى مصر . . .

وفى مطار القاهرة كان الاستقبال رائعًا حضره مندوبون من وزارة السياحة . وفى الطريق إلى الأهرامات كان عبد الله ورفيقاه فى حيرة مما يرونه من حضارة وبنايات ضخمة . . .

وفى المساء خرج ثلاثتهم ليشاهدوا قمم الأهرامات وهى تلمع فى ضوء الشمس الغاربة . وفى الصباح نهضوا مبكرين حيث وقعت أنظارهم فى الحال على حزم وأكوام البردى ، فنشطوا للعمل بعد أن اختاروا مكانًا بين الخيام ، لبناء قارب طوله خمسون قدمًا وعرضه ست عشرة قدمًا . ولكن صادفتنا مشكلة المياه وبحث الرجال الثلاثة عن بحيرة قريبة لغمس أعواد البردى فيها قبل ثنيها أو طيها . فبنينا لهم حوضًا من الماء فشرع كل من موسى وعمر فى بناء القارب بجد ونشاط . واستمر العمل عدة أيام طبقًا لمواصفات معينة وتصميمات فرعونية خاصة وافق عليها الصانعان بعد مجهود مضن من الإقناع ، وظهر القارب فى آخر الأمر كواحد من القوارب المصرية القديمة وكأنه هلال أمام الأهرامات العظيمة . . .

وفى شهر أبريل بدأت الشمس تلهب رمال الصحراء ، والقارب

العظيم الذى تم صنعه ، وانهال على المكان ألوف من السائحين الذين وفدوا على مصر لرؤيته . لقد صنعنا قارباً من الورق فأى شرارة قد تأتى عليه فى لحظات ، لذلك وضعنا لافتات باللغتين العربية والإنجليزية تمنع التدخين منعاً باتاً . . .

وفى مصر أيضاً صنعنا مقصورة القارب من القش . وفى أثناء صناعة القارب كنا نذهب بين وقت وآخر إلى القبور العتيقة لدراسة تفاصيل الرسومات القديمة . وكانت صور السفن الخشبية الطويلة تكشف دائماً عن كتلة من الخشب ترتفع فوق سطح القارب ، وكان لا بد من إقامة مثل هذا الصارى فوق قاربنا لربط مؤخرته به . . .

وعلى سطح قوارب البردى المصرية القديمة كانت توجد دائماً سلال من الفاكهة والخبز والفطائر ، وأوان فخارية ، وصناديق وطيور وقرود وصيادون ونجار وبحارة ، وهنا كان فرعون مصر العظيم مع ملكته يجلسان على العرش الملكى ، وأمامهما السقاة على استعداد لملء كأسيهما . وفى بعض النقوش كان الفرعون يرمز إليه بعملاق من العمالقة فى طول القارب ذاته . . . وكانت قوارب البردى الجميلة تتزين برءوس الحيوانات المحنطة وقد طليت صواريها ومجاديفها . . كل ذلك أبدعه المهندس المعمارى المصرى القديم . . .

كانت الحجارة فى مصر كثيرة لبناء جبال عظيمة . وكذلك نبات البردى كان وفيراً لبناء قوارب كبيرة . وكان القارب الذى بنيناه صغيراً بالمقارنة

إلى ضخامة قوارب مصر القديمة ، بل شعرنا بنقصنا وضآلتنا عند ما خرجنا به إلى أقدام أبي الهول العظيم . . .

وبعد أن تم بناء القارب طرت إلى المغرب لإعداد ما يلزم للإبحار به من ميناء صافي(١) . وبعد عودتي إلى مصر كان القارب قد احتوى على ثمانين ألف عود من أعواد البردي . ولم يبق منها غير ستة أعواد تناثرت على رمال الصحراء . . . وفي يوم ٢٨ أبريل أي بعد مضي اثنين وعشرين عامًا على بعثة « كون تيكي » Con - Tiki التي عبرت الباسيفيكي بدأ بالفعل نقل القارب في احتفال مهيب وكأنه قارب نوح إلى مدينة الإسكندرية لينقل إلى ميناء آسفي . . .

---

(١) اسمه المغربي « آسفي » .

الباب السابع

فى عرض المحيط الأطلنطى

فى ميناء صافى انبعثت رائحة الأطلنطى الذى سوف نعبره بالقارب رع . ووقفنا أمام المبنى القديم الذى احتله البرتغاليون للدفاع عن الميناء فى عام ١٥٠٨ بموافقة زعيم البربر يحيى بن تافوفت Yahia Ben Tafouft وبين جدران القلاع التى بنيت فى القرون الوسطى ، وبين القلعة البرتغالية التى يبلغ عمرها أربعمائة وخمسين سنة من الزمان ، كان يعيش مجتمع من الصيادين العرب والبربر ، يعملون فى همة ونشاط ، فى أكبر تجارة للسردين فى العالم وقد انتشرت قوارب الصيد الملونة فى الميناء ، وظهرت البواخر الكبيرة من عابرات المحيط وهى تستبدل البضائع مع مراكش أهم مدينة فى البلاد . . .

لقد استخدم البربر هذا الميناء لمدة ألف عام قبل مجىء البرتغاليين ، كذلك استخدمه الفينيقيون لمدة ألف عام آخر قبل ذلك . ووراء هذا الميناء يدفع تيار كنارى Canary كل شىء فى طريقه إلى الجانب الآخر من الأطلنطى ، لذلك وقع اختيارنا عليه ليدفع بقارب رع إلى أمريكا . . وكل الذين عبروا مضيق جبل طارق ، أعمدة هرقل القديمة ، قد وجدوا مأوى فى صافى كما فعل الفينيقيون من قبل . .

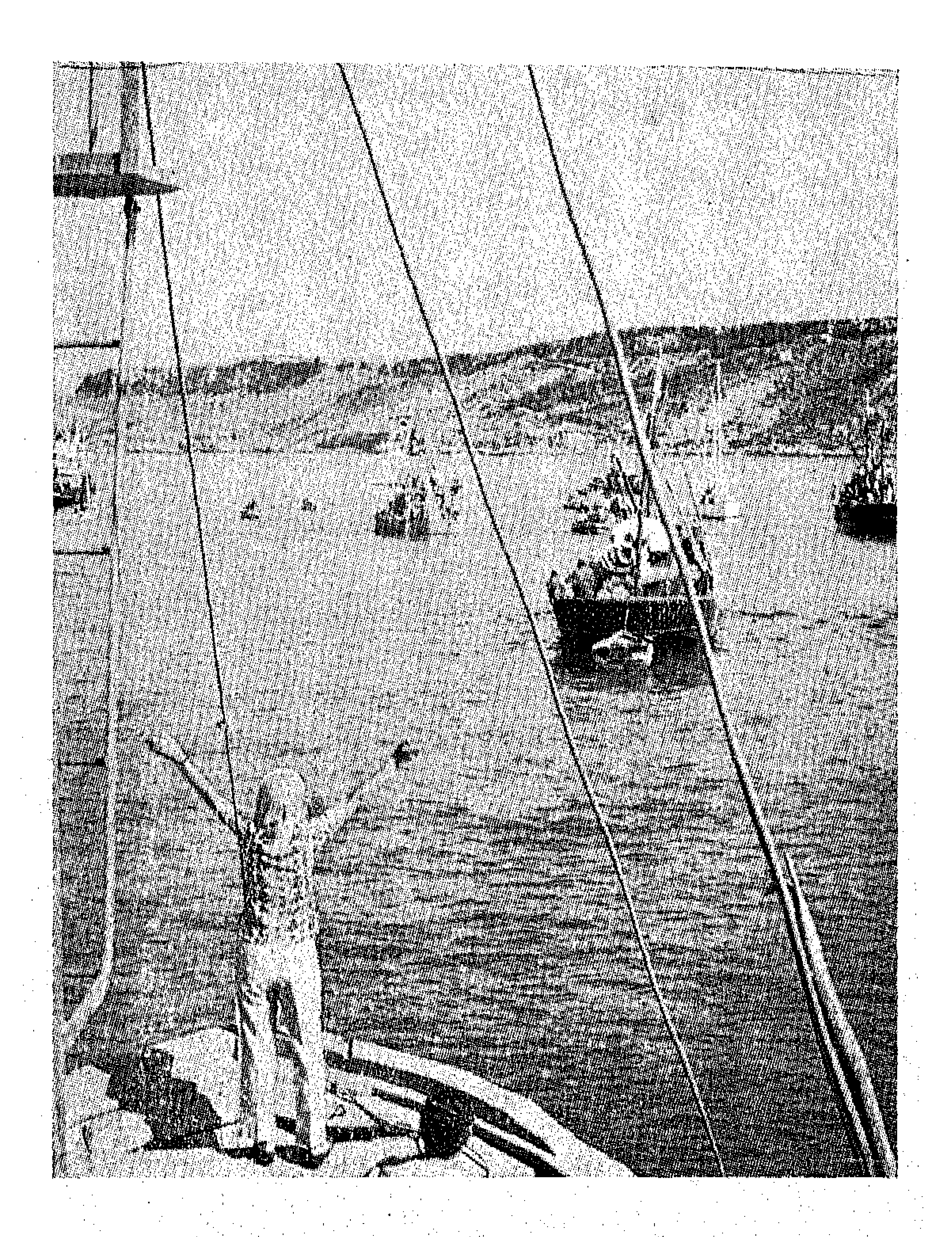
وكان من الممكن أن يشق قارب ورقى طريقه إلى صافى عن طريق

الساحل الملتوى للقارة الأفريقية . ولم يشك إنسان أن القارب سوف يطفو ، ما دام سيكون قريبًا من الشاطئ لسحبه وتجفيفه يومًا بعد يوم . وكان السؤال : كم من الزمن سيطفو القارب إذا ترك الساحل وبدأ الإبحار فى البحر المفتوح ؟

كنا نعرف أن قوارب البردى كانت تستخدم على طول ساحل الأطلنطى فيما وراء جبل طارق . بل لا يزال يستخدمها الصيادون الذين يعيشون فى ظلال أطلال وخرائب « نوراغى » Nuraghi الغامضة على الساحل الغربى لجزيرة سردينيا Sardinia . . . وعند مصب نهر لوكاس Lucus على ساحل الأطلنطى بين جبل طارق وصافى عاشت قوارب البردى كأداة للصيد ، ووسيلة للانتقال ، حتى أحل البرتغاليون محلها القوارب الخشبية فى بدء هذا القرن . وفى عام ١٩١٣ وجد أعضاء البعثة الإسبانية العلمية أن قبيلة « الجلوت » El Jolot Tribe كانت تبنى قوارب البردى التى تنقل خمسة أو ستة من الصيادين ويديرونها بالمجاديف أو الأشرعة . وقالوا إنها نفس القوارب التى ظهرت فى مصر القديمة ، وإنها نفس القوارب التى تستخدم حاليًّا فى أعالى النيل ، وفى تشاد وفى بحيرة تيتيكاكا Titicaca كا فى جنوب أمريكا . ودعت البعثة علماء أصول السلالات البشرية للبحث عن أصل الصلة أو العلاقة التى وجدت بين بناة القوارب فى هذه الأماكن المتفرقة النائية عن بعضها بعضًا . . .

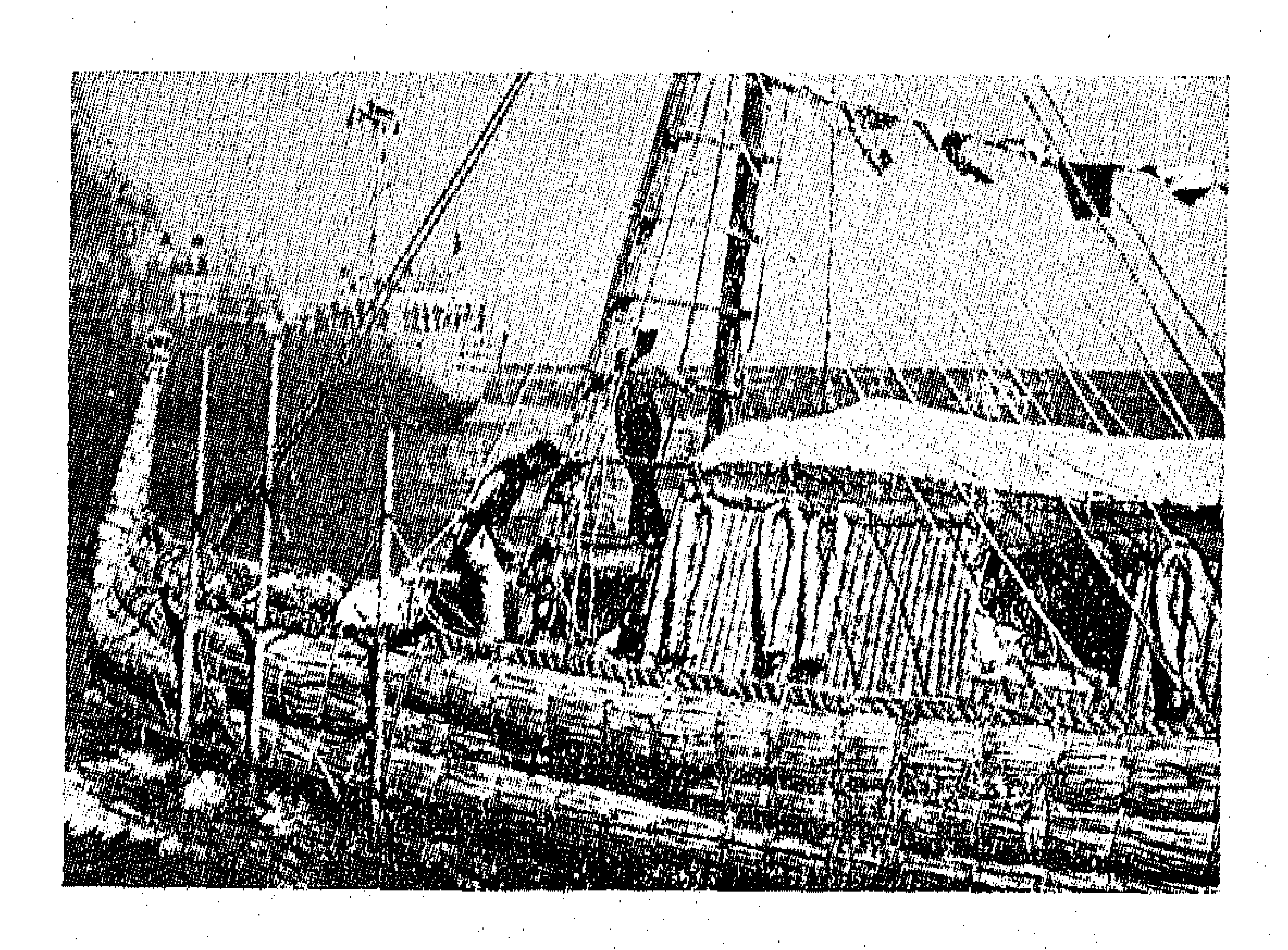
* * *

جاء الناس من كل صوب لرؤية القارب الورقى الذى بناه أصدقاؤنا



القارب رع وهو يبحر من ميناء آسفي بالمغرب وزوجة ثور هايردال تودعه

من تشاد ، وقد أصبح على أتم استعداد للهبوط إلى ماء البحر فى ميناء صافى القديم . وحاول عبد الله أن يشرح لإخوانه من العرب والبربر مشروعنا الكبير ، أو مخاطرتنا العظيمة ، بلهجة عربية ، أما موسى وعمر فقد عادا إلى تشاد . وفى صافى عمل عبد الله على ربط القارب الورقى الذى تصدع قليلا فى طريقه من القاهرة إلى الإسكندرية ، ومنها إلى صافى . فقد تفلطحت المقدمة والمؤخرة قليلا . وعلى مرور الأيام جفت أعواد البردى وازدادت قوة وحدة بعد أن امتصت هواء البحر المشبع بالرطوبة . . .



القارب رع وعليه أعلام الدول التى اشترك أعضاؤها فى المغامرة

وفى يوم ١٧ مايو (عام ١٩٦٩) أنزل القارب ر ع إلى البحر فى احتفال عظيم. ودشن بلبن الماعز الشعار القديم لمراكش للكرم وأطيب التمنيات . . .

وفى اللحظة التى انزلق فيها القارب إلى الماء رأيت أحد المصورين يتقدم نحوى ويقول :

— ماذا سيكون شعورك لو انزلق القارب وغاص إلى الأعماق ؟

لم يكن هناك وقت للرد عليه ، فقد انفصل القارب من الإطار الذى أنزل عن طريقه ، وطفا فوق الماء كالأوزة السمينة . . . وتنفست الجموع الصعداء وبدأت علامات الارتياح ترتسم فوق كل وجه من الوجوه . . .

مكثنا بالقارب أسبوعاً كاملا فى مياه صافى حتى يمتص الماء ويتشبع به . وخلال هذا الأسبوع التأم شمل البحارة . وإن كانت الحقيقة أن بحاراً واحداً حقيقياً كان بينهم ، هو « نورمان بيكر » Norman Baker من الولايات المتحدة فقد عهد إليه بالملاحة ، وإدارة جهاز اللاسلكى. أما « يورى ألكسندروفيتش » Dr. Yuri Alexandrovich الروسى فكان طبيب البعثة ، وسبق أن قضى عاماً بأكمله فى محطة التجارب فى ڤوستوك Vostok التى ترتفع عن مستوى البحر بعشرة آلاف قدم بالقرب من القطب الجنوبى حيث تهبط درجة الحرارة تحت الصفر بمائة درجة فارنهايت . . .

أما الإيطالى كارلو مورى Carlo Mauri فكان مصوراً سينمائياً ، لا خبرة له بالبحار على الإطلاق . هوايته تسلق الجبال المختلفة فى العالم .

وكدنا نفقد صديقنا المكسيكى رامون الذى أجريت له عملية جراحية يوم نقل القارب من ميناء الإسكندرية . وجاء بدلا منه دكتور سانتياجو جنوفز Dr. Santiago Genoves عالم التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية . وعهدنا إليه بالأوانى الفخارية التى صنعنا منها ١٦٠ آنية فى المتحف المصرى . ولم تكن له خبرة بالبحار أيضًا . . .

وكان عبد الله جبرين أقل الناس معرفة بالبحار عن زميليه يورى وسانتياجو ، بل لم يعرف أن ماء البحر مالح . . . وقد انضم إلينا بصفته خبيراً فى البردى . وكان أحب الناس إلىّ ، فقد قضيت معه وقتًا فى تشاد وسبعة أسابيع وراء الأهرامات . وكان عبد الله مزواجًا . . . فقد تزوج بامرأة من تشاد ، وأنجب منها ثلاثة أطفال ، وأخرى تزوجها فى اللحظة الأخيرة قبل مغادرته البلاد ، وتزوج بثالثة من القاهرة . لذلك لم نتركه يفرّ من أمامنا فى مراكش حتى لا يتزوج برابعة فتزداد المشاكل اتساعًا ! . .

أما أصغر أعضاء البعثة فكان مصريًّا يدعى جورج سوريال وهو مهندس كيميائى ممتاز ومن الضفادع البشريين المحترفين ومن أبطال الجودو فى مصر وأفريقيا . ومنذ تخرجه لم يشغل منصبًا من المناصب ، بل قضى وقته بين نوادى القاهرة وأمواج البحر الأحمر . وقد اعتاد أن يدخل الرعب فى نفوس أصدقائه عند ما يحطم ستة قوالب من الطوب بضربة واحدة من يده . وبساقه علامة عضة سمكة قرش . وكان الرجل الوحيد الذى عرفت عنه أنه يستطيع أن ينزل إلى الماء وإلى كهوف ثعابين السمك القاتلة ويغريها بأسماك يضعها فى فمه وهو يربت على الوحوش الضارية وكأنها

حيوانات مستأنسة مدللة ! ! .

لم يكن جورج هو الآخر بحاراً ، ولكنه كان يعرف البحر فقط من الأعماق . وعند ما انضم إلينا قال إنه يشعر بسعادة طاغية تحت الماء . وجور ج ينحدر من أصلاب العائلات القبطية القديمة فى مصر . وكان ينام كالمومياء لمدة أربع عشر ساعة فى خيام الأهرامات ، وفى الفجر



صندوق به حاجيات البحارة يدفع به بحاران إلى داخل المكان المعد لذلك

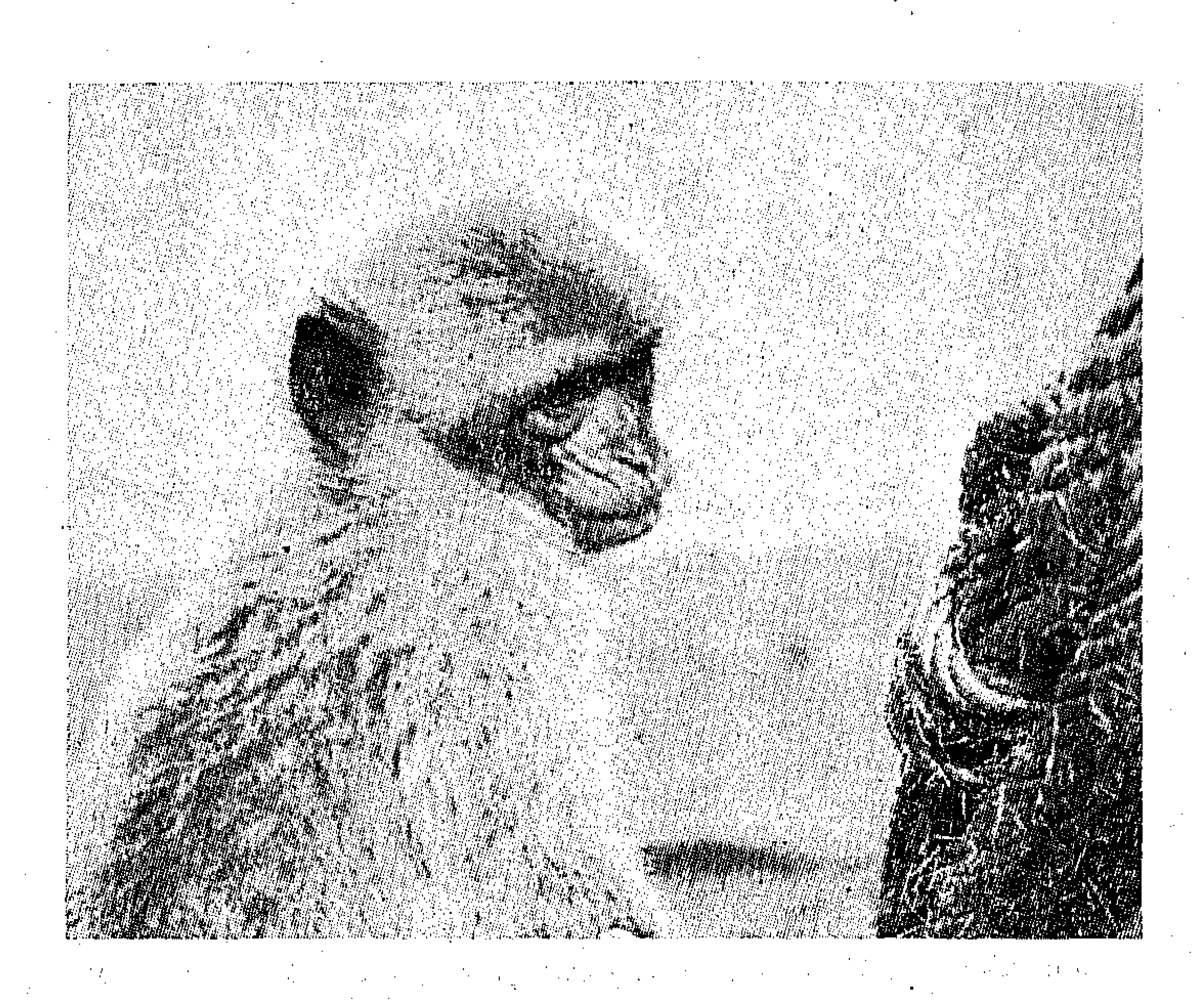
يستيقظ ليقوم بنصيبه فى عمل النهار . . .

ومرت الأيام والقارب يمتص المزيد من مياه البحر . وكان وزن القارب وحباله اثنى عشر طناً ، ثم أضيفت إليه أطنان أخرى ، ومع ذلك ظل صامداً طافياً كجزيرة من الجزر الصغيرة . وكان أثقل ما فيه صاريه الضخم وطن الماء العذب المحفوظ فى الأوانى الفخارية . وكان كل يوم يقضيه القارب فى الماء يضيع من حياته طبقاً لما كان يقوله الخبراء . وموسم الأعاصير على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى يقترب هو الآخر بخطى حثيثة .

قررنا بدء الرحلة بدون أدنى تأخير . وانضم إلينا عدد من القباطنة لتحريك القارب ووضعه فى الخط الصحيح بعد أن أمضى ثمانية أيام بأكملها فى ماء البحر أو أكثر من نصف حياته كما كان يقول الخبراء . وفى الساعة الثامنة صباحاً من يوم ٢٥ مايو ارتفعت الأعلام فوق السفينة رع وهى تتهادى فى ثقة وإيمان متجهة نحو مياه الأطلنطى ومن حوله الريس فتيح أو العملاق الأسود فى قوارب مع عدد من معاونيه ليخرج رع من الميناء .

وانضم إلى القارب قرد صغير جاء من جبال أطلس فأطلقنا عليه اسم « صافى » . وتعلق القرد بصارى القارب ولم يهبط منه إلا بعد وقت طويل . . . وكانت لحظات الوداع مثيرة ، ونحن نهبط إلى سطح القارب واحداً وراء واحد . وانطلقت صفارات السفن من حولنا ، وتعالت أصوات المودعين كقصف الرعود ، كما اندفعت خلفنا مراكب الصيد واليخوت ، ومن فوقنا طائرة السفارة ، وأخرى هليكوبتر جاءت من العاصمة الرباط .

ولأول مرة رفعنا شراع رع الضخم الثقيل والمصنوع من القماش المصرى القوى . وكان ارتفاعه ٢٦ قدمًا وعرضه ٢٣ قدمًا . ودفعت الريح الشراع ثم أصبح ساكنًا يعرض قرص الشمس الكبير كرمز لرع . . . بينما ارتفعت الأعلام حسب ترتيبها الأبجدى تشاد ، مصر ، إيطاليا ، المكسيك ، مراكش ، النرويج ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وعلى الجانبين علم الأمم المتحدة . . .

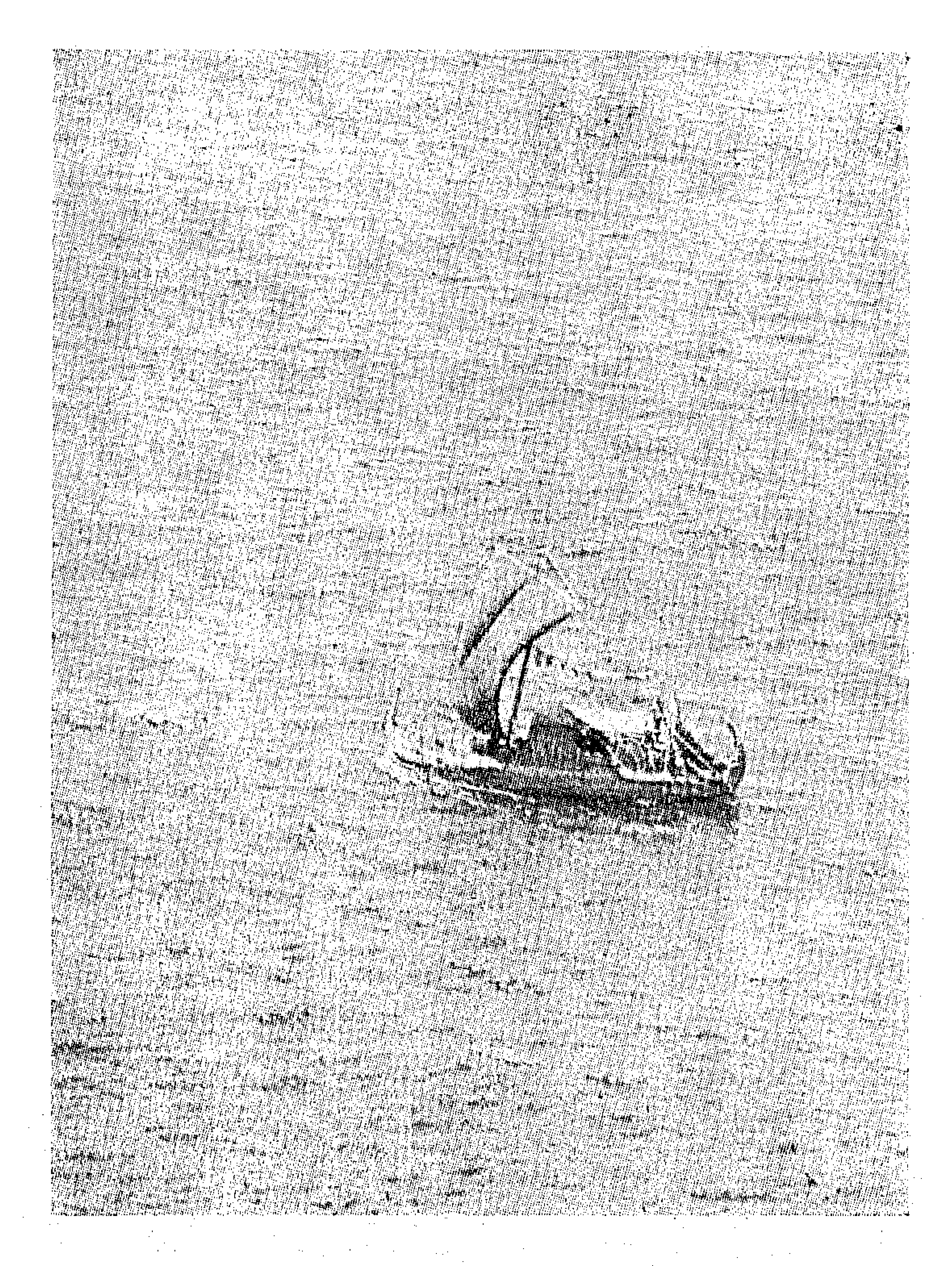


القرد صافى رفيق الرحلة جاء من جبال أطلس

وقفت مع عبد الله نمسك بالدفة على الجسر الخلفى للمقصورة الرئيسية ننظر بشغف وإمعان إلى أمواج البحر، وهى تتحطم عند أقدام الحاجز الصخرى الكبير خارج الميناء على بعد مائة ياردة منا . فهل كنا نقترب من الأرض ؟ فألقينا فى الحال بحبل إلى أقرب مركب صيد فامتلأ الشراع بالهواء واندفع القارب بسرعة هائلة فى خط مستقيم ، خارجاً إلى البحر . وبهذه السرعة الجنونية كنا نخالف قوانين الطبيعة ، فكان أول ما حدث أن شبكة بها جراد البحر « لبستر » حتى اندفعت نحونا واشتبكت بالدفة ، فكادت تتحطم . فعملنا فيها بخناجرنا وأنقذنا الدفة من التحطيم . وكان الشيء الثانى الذى حدث أن أحد المجاديف الثلاثة التى ربطناها على جانب رع قد انفصل من مكانه بسبب السرعة الخاطفة . . .

بدأت الريح تهب ببطء شديد ، ثم ازدادت سرعتها تدريجياً . وكنا لا نزال قريبين من صافى ومن بيوتها المنتشرة هنا وهناك . وبدأنا نفكر ماذا سيحدث لدفة السفينة تحت وطأة هذه الريح العاتية . وكان أملنا الوحيد أنه وراء الساحل المراكشى سوف تحملنا الريح والتيار مباشرة من الساحل ، وبذلك نمضى أسبوعاً أو أسبوعين بدون أن تقذف بنا الأمواج إلى الصخور ، وكان خوفنا شديداً من الساحل وليس من البحر المفتوح . . .

لقد صممنا دفة قيادة رع طبقاً للنماذج المصرية القديمة المختلفة ، وحاولنا أن نحصل على صار من خشب الأرز فى لبنان الذى كان يستعمله المصريون فى مجاديفهم وصواريهم . لكن جهودنا ذهبت أدراج



وحدة فى المحيط . . القارب رع بعد أن غادر ميناء آسفى بالمغرب

الرياح ، لأن ما تبقى من هذه الأخشاب النادرة قد حفظ فى حديقة خاصة فاخترنا شجرة مصرية للصارى والمجاديف . . .

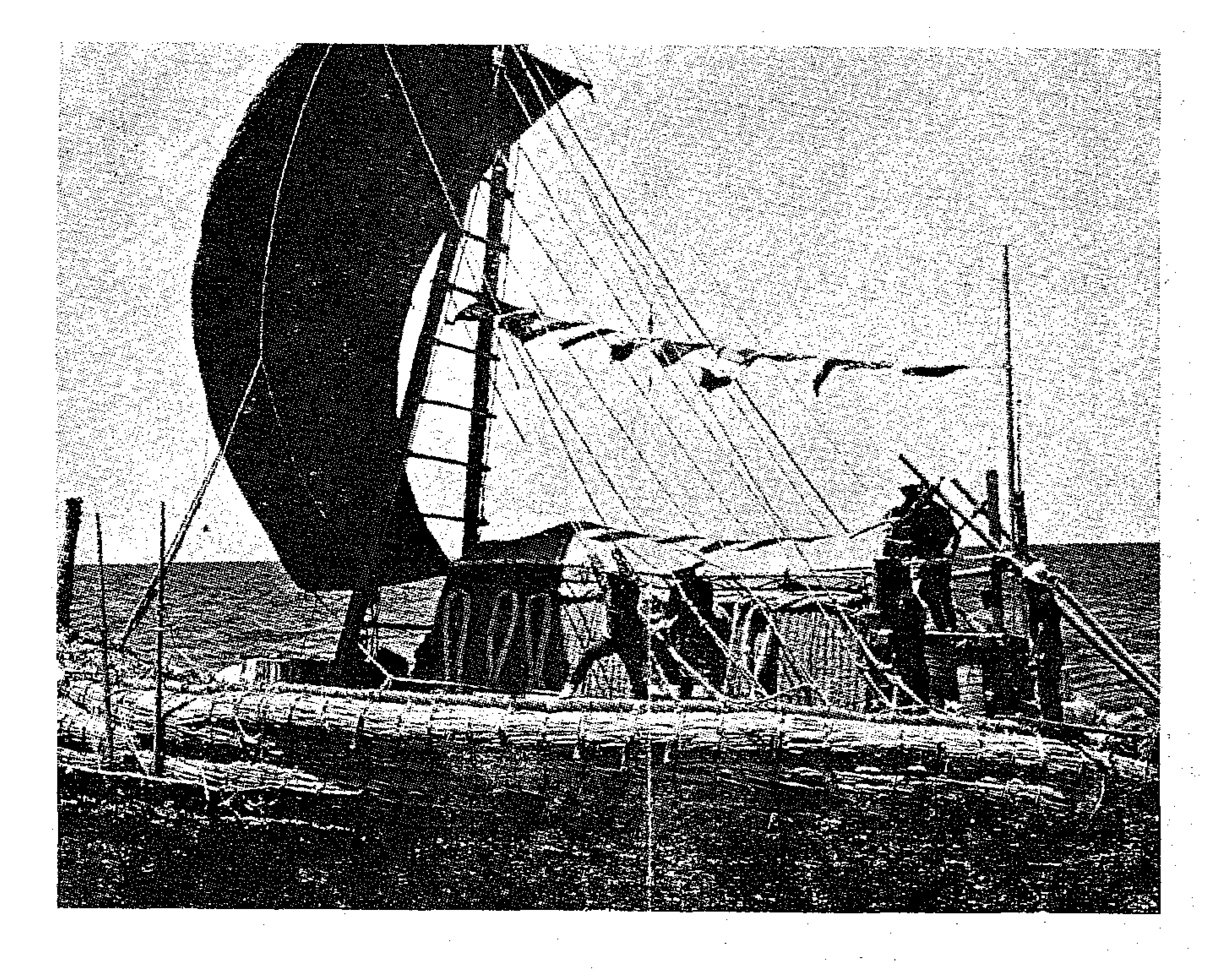
وصمد رع للريح ، واتخذ طريقه الصحيح ، واختفت من حولنا مراكب الصيد ، والهواة ، وكذلك الطائرات . وأصبحنا وحيدين فى البحر المفتوح الممتد أمامنا . . . سبعة رجال وقرد وقفص خشبى به دجاج صياح وبطة واحدة ... وشاع الهدوء من حولنا وكأننا فى فلك نوح .

ازدادت سرعة الريح ، وبدأت الأمواج تعلو وتتجه نحو رع الذى رفع أحد جانبيه ليدع الأمواج تمر من تحته . وبين وقت وآخر كانت الأمواج تتجه مباشرة نحو المجاديف ، فيخفف عبد الله قبضته الحديدية عليها ، حتى لا يحطمها الضغط المائى العنيف . ومر كل شىء على ما يرام وارتفعت معنوياتنا ، وبدأنا نحتسى القهوة وأصبحت الحياة فى البحر وكأنها الحياة فوق قمم الجبال . . .

كانت سرعة رع لا تزيد على ثلاث عقد[1] فى الساعة ، وبدأ الساحل يختفى رويداً رويداً ، وأشرفت الساعة على الثالثة والربع مساء عند ما تركت الدفة أنا وعبد الله لرفيقين آخرين جاءت نوبتهما فى القيادة — فتناولها كل من كارلو وجورج . ودخل عبد الله المقصورة لينام ، بينما رحت أفحص السطح المزدحم بالأوانى الفخارية ، وجلود الماعز وسلال الخضراوات . وبعد أن قمت بهذه الجولة ، ذهبت لأنام لأول مرة بعد

---

(١) العقدة = الميل البحرى أى ١٨٥٢ متراً تقريباً . (الناشر)



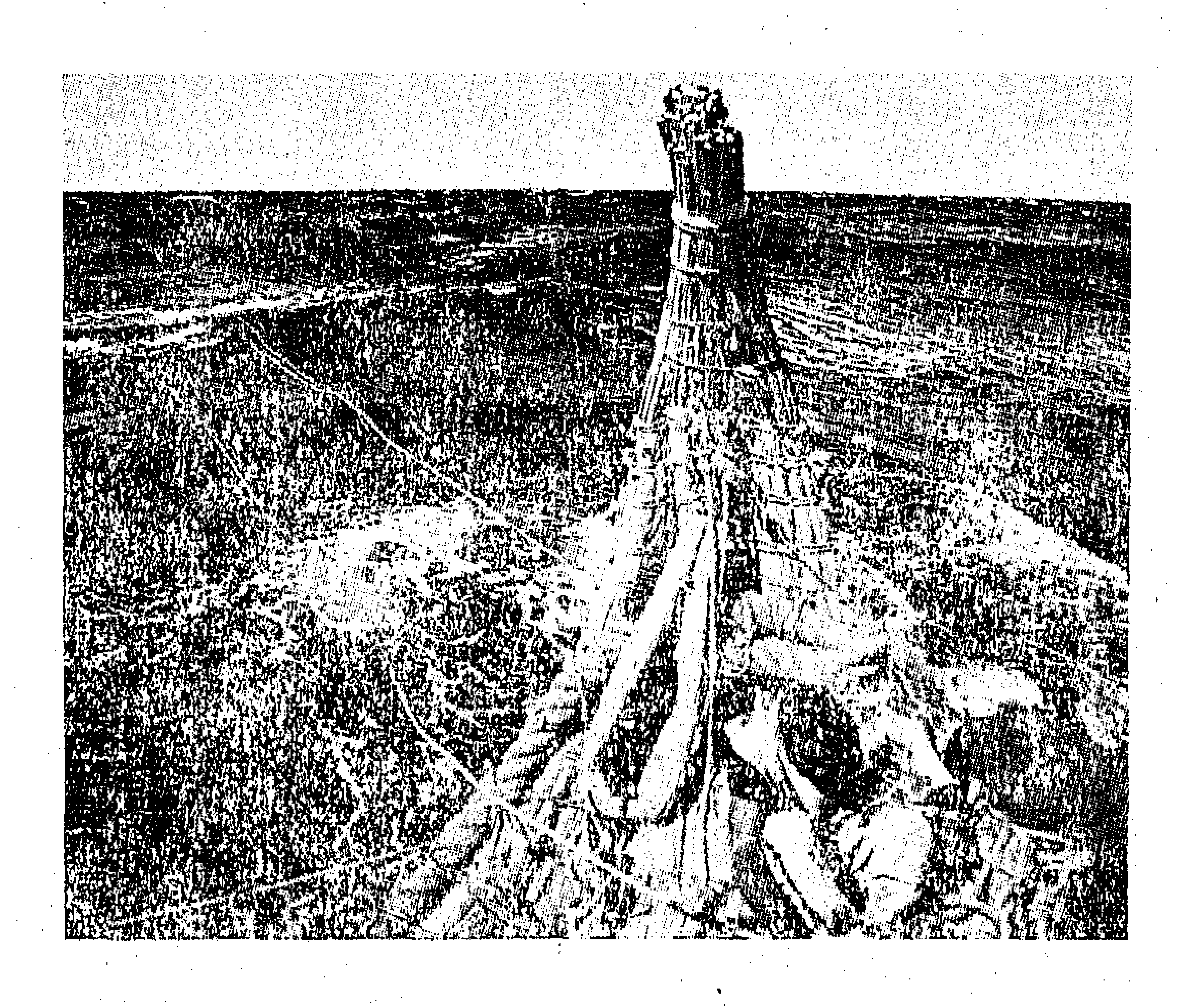
القارب العظيم رع وعليه بحارته يحاولون حمايته من عنف الرياح

عدة أسابيع من الشغل الشاغل ، والعمل المتواصل . وما كاد النوم يداعب جفونى حتى سمعت صوتًا ينادينى . . . « ثور . . . ثور » فقفزت على الأثر ، وقد ازدحمت الأفكار السوداء فى رأسى وأشار يورى نحو الدفة وقد تعلق بها الرجلان وهما يصرخان طلبًا للنجدة . ومد جورج ذراعه وصرخ بالإيطالية : « إن الدفة قد تحطمت ! » ولحسن الحظ كنا قد ربطنا حبلا بكل مجداف على الطريقة المصرية القديمة . . . ومع ذلك كان رع يتقدم ثابتًا فى طريقه المرسوم . . .

لقد تحطم مجدافا الدفة ويمكننا استخدام الطريقة القديمة التى كان يستخدمها شعب الإنكا فى قيادته للقوارب فى داخل البحار . . . واستيقظ عبد الله من نومه هو الآخر على أصوات الضجيج ، وعلت ضحكاتنا . فقد أصبح القارب يقود نفسه بنفسه بدون حاجة إلى دفة ترشده وتقوده . وكان علينا والحالة هذه أن نجلس فى المقصورة ونرقب البوصلة والأجهزة الملاحية الأخرى . . .

اتجه القارب نحو الجنوب الغربى فى الطريق الذى كنا نريد أن نسلكه وهو نفس الطريق الذى اتخذه القارب طوعًا واختيارًا ، وهو مرفوع الشراع ، شامخ الرأس ، ونحن على سطحه ننعم بلذة السفر كأى ركاب عاديين . وقلت لمن معى إن ما حدث لنا هو من تصاريف القدر وحسن الطالع . وكان علينا أن نفسح الطريق لأمنا الطبيعة تفعل ما تشاء ، وبرغم أنه كان لدينا دفة أخرى فوق القارب ، لكننا فضلنا ألا نضعها خوفًا عليها من التحطيم لأننا بدأنا فعلا نعبر المحيط الأطلنطى العظيم . . .

وفى المساء كان اثنان من البحارة أو الرواد قد أصيبا بالمرض ، فالبحار الحقيقى ، زميلنا الأمريكى ، قد أصيب بالإنفلونزا ، والعالم سانتياجو أصيب بإكزيما جلدية ، وكان القارب يتجه بجد وإصرار نحو جزر كنارى . وخاف الطبيب يورى أن يكون سانتياجو قد أصيب بمرض « تينا » Tinea وهو مرض قاتل منتشر فى شمال أفريقيا . . .

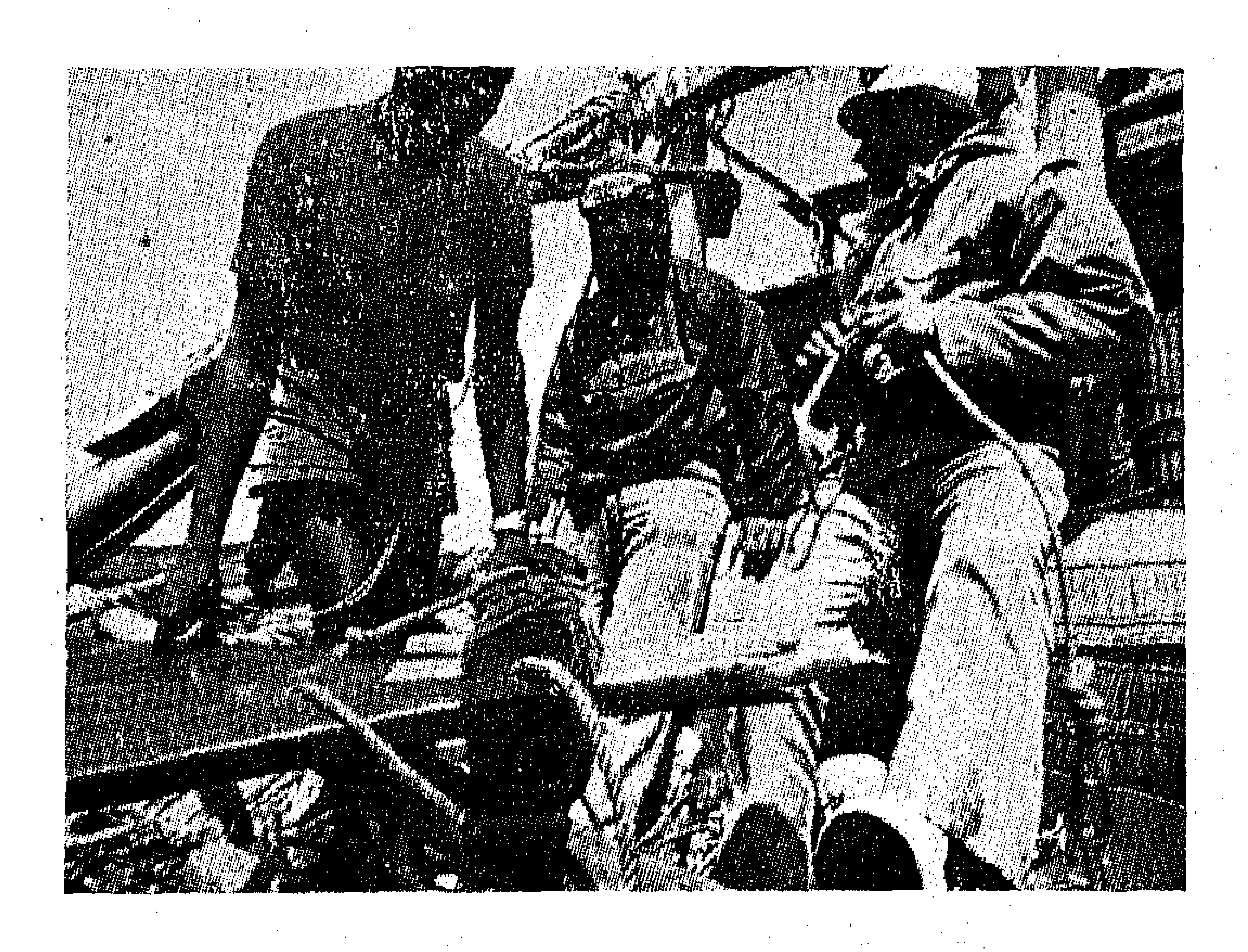


اندفعنا بالقارب نحو الجنوب على طول الساحل الأفريقى بدون شراع أو مجداف

عند ما أرخى الليل سدوله علق كارلو مصباحاً فوق الصارى حتى لا تصطدم بنا السفن العابرة . وكانت وردية الليل مقسمة بين إيطاليا ومصر والنرويج . فروسيا قد بذلت أكثر مما يلزم فى رعايتها للولايات المتحدة والمكسيك . وفضلنا أن نترك النجار الذى جاء من تشاد يستمتع بنوم هادئ طويل حتى يستطيع أن يصلح من أمر الدفة فى الصباح فأمامه عمل مرهق شاق .

وهددتنا الرياح التى أخذت تهب من الشمال الغربى ثم من الغرب الشمالى ومكثت طول الليل وأنا أرقب الفنار البعيد ، وهو يتلألأ بضوئه القوى فى الظلام ، حتى اختفى هو الآخر تماماً . . وما دام الظلام قد حل لم أجرؤ على أن أغادر المكان . وكان على أن أحملق فى الظلام باحثاً عن بصيص من نور ، وكلما رأيت نور قارب أوسفينة انخلع قلبى من مكانه فهل كان هذا الضوء منبعثاً من الشاطئ ، وهل نتجه بهذه السرعة والعنف نحو المبانى ؟ وما دامت المياه من حولنا فلا خوف علينا من أى كارثة . . .

وعند ما ظهر الفجر فى الشرق واختفت الأرض تماماً من حولنا رأيت يورى وقد ارتدى رداء سميكاً وجلس يبتسم ، فاندفع كل منا إلى فراشه لينام ، ولندع حزم البردى تشق طريقها فى إصرار وعناد وثقة واطمئنان ، لم أكن وحدى الذى أرهقه التعب فلم يغمض لى جفن خلال يوم كامل . ومر اليوم الأول ونحن على القارب الورقى رع . . .



مجدافا الدفة بعد أن تحطما وعبد الله جبرين يحاول تقويتهما بالحبال

الباب الثامن

من الساحل الأفريقي إلى (كيب چوبي)

صاح الديك ، وشممت رائحة عشب جاف ، وقلت فى نفسى إننى لا بد فى ضيعة من الضياع . ولكن الحقيقة لم تكن كذلك لأننى كنت محمولاً على محفة . فقد استيقظت وأنا فى زكيبة النوم . وسمعت صوت المياه وهى تندفع من تحتى ، والأمواج ترعد فى أذنى . وحقيقة الأمر أننى كنت فى قارب . وفتحت عينى فرأيت الأمواج الزرقاء من خلال فتحات حائط البامبو . وكنت فوق القارب رع . أما رائحة العشب الجاف فقد انبعثت من الوسادة السميكة التى كانت محشوة بالعشب المراكشى الجاف . . .

وصاح الديك مرة ثانية ، فركعت على يدى وركبتى وزحفت إلى حائط البامبو ، لألقى نظرة ، فإذا بنا على مقربة من الساحل ، ولم أر غير أمواج تعلو وتهبط ، فواصلت زحفى إلى الأمام . وكان الهواء بارداً مثلجاً ، ويورى جالساً على الجسر وكأنه إسكيمو يدون بعض الملاحظات ولا بد أننا قد توغلنا فى البحر لأن ريح الشمال بدأت تهب ومعها ترتفع الأمواج إلى اثنى عشر قدماً فسألنى يورى : أين نحن الآن ؟ فقلت : الله وحده يعلم . واستيقظ عبد الله وتبعه جورج ، والتففنا حول كارلو ،

الذى أعد لنا طعام الفطور . وسألنى جورج بدوره : أين نحن ؟ . . .
فقلت لا أدرى . أغلب الظن أن الساحل الذى نراه للقارة الأفريقية .
فعاد يسأل : ولكن كيف عرف القدماء الطريق بدون بوصلة ؟ . . .

فقلت : كانوا يعرفون الطريق أو الشرق والغرب بالنظر إلى الشمس ، وكذلك الشمال والجنوب من النجم القطبى وصليب الجنوب — أربع نجوم لامعة — وكذلك كانوا يعرفون خطوط الطول بقياس الزاوية من الأفق إلى النجم القطبى ، فهى دائمًا على زاوية تسعين درجة نحو القطب الشمالى وهى تمس الأفق مباشرة إذا كنت تنظر من خط الاستواء . . .

فإذا كنت عند درجة ٦٠ شمالا فإن النجم القطبى يصبح على درجة ٦٠ فوق الأفق . وإذا كنت على درجة ٣٢ فإن النجم القطبى يصبح أيضًا على درجة ٣٢ وهكذا . وإذا رأيت النجم القطبى تستطيع فى الحال أن تعرف خط الطول منه مباشرة . وكان الفينقيون وسكان جزر شرق أستراليا والفايكنج يعرفون خطوط الطول بالتقريب ، وذلك بحساب المسافة تبعاً لسرعة السفن . وكانت تيارات المحيط غير المنظورة عاملاً مشكوكاً فيه ما داموا لا يرون الأرض . . .

وفى المتحف المصرى بالقاهرة رأى جورج الأجهزة التى كان يستعملها قدماء المصريين منذ آلاف السنين لقياس زوايا الأجسام السماوية ، وكم كان النجم القطبى والشمس من أهم الأشياء فى حساباتهم الفلكية والمعمارية .

كان شراب « الكركديه » المصرى الذى قدمه لنا كارلو ضمن طعام الفطور مثل شراب التوت الساخن وكان الخبز المصرى « كالبسكويت »

من أجود أنواع الخبز التى أكلناه ونحن على ظهر القارب رع . . .

وفى داخل القارب كان نورمان وسانتياجو لا يزالان مريضين . وكانت مشكلة سانتياجو أن الرطوبة فى رع أصبحت عالية جداً ، مما جعل محتويات القارب كلها مالحة، وكان جلده يؤلمه أشد الألم ومع ذلك كان الرجل يقاوم فى صمت .

كان القارب رع فى شكله الغريب يشبه وحشاً مائياً يمخر عباب الماء ويخيف كل من يعترض طريقه . وكان أغرب ما فيه صاريه الضخم وشراعه الكبير ، أو كأنه زعنفة سمكة تعلو وتهبط بين الأمواج . . .

بعد مرور اليوم الأول صدمنا صدمة عنيفة عندما جاءنا النجار عبد الله ومعه شريط القياس وأخبرنا بأن جسر القيادة تقلص بقدر ثمانى بوصات من حائط المقصورة ، وفى أماكن أخرى ضغطت بطريقة قد تؤذى أصابع القدم إذا سقطت بينها ، لذلك كان علينا أن نسير بحذر شديد ونرقب عن كثب تصرف القارب الورقى خلال الرحلة التى قد تمتد إلى أسابيع ونحن فى يومنا الثانى . . .

ومن خبرتى السابقة فى رحلتى على الطوف « كون تيكى » الذى عبرت به المحيط الباسيفيكى تعلمت أنه لا بد أن يلف كل واحد منا نفسه بحبل خوفاً من أن تقذفه الريح إلى الموج ، لأن أى سباح ماهر لا يمكن أن يلحق بنا ، والريح تدفع القارب دفعاً وبسرعة تكاد تكون جنونية . وبرغم أننا كنا نحتفظ بصندوق كبير به أطواق نجاة إلا أننا ما كنا لنستخدمها إلا فى حالة الطوارئ القصوى . وكان القانون الأول الذى

التزمنا به أن نظل على ظهر القارب . وألا نتحرك من مكان لآخر من غير هذه الحبال الملفوفة حولنا وفى نهاية الحبل خطاف . وطبقت هذا القانون بحرفيته بصرف النظر عن نوع الجو الذى كنا نعيش فيه كل يوم . . .

بدأت الريح تهب بعنف ، وبدون دفة فى القارب . وكان من العسير علينا السيطرة عليه سيطرة كاملة . ومع ذلك فقد كان (ر ع) يجرى فى الاتجاه المضبوط . واشترك معى (عبد الله) ، بعد أن أدى فروض الصلاة ، فى ترميم المجاديف وربطها بأعمدتها . كما اشترك معنا (كارلو) . وبعد مرور وقت استطعنا أن نرمم المجداف الأول عندما ازداد هبوب الريح مما هدد بتحطيم الصارى من أعلاه . وحاولنا أن نطوى الشراع ، ولكننا عدلنا عن هذه الفكرة خوفاً من أن يطير ويقع فوق الأمواج . وكان علينا والحالة هذه أن نعيد القارب إلى طريقه الصحيح ، وذلك بتحويل الشراع .

وفوق السطح رأيت إبرة البوصلة تتحرك ببطء شديد . وبعد مجهود مضن عنيف بذله كل بحار فوق القارب الورقى استطعنا أن نتغلب على حدة الريح ، ونندفع به فى الاتجاه الذى يكفل لنا البقاء فوق صفحة الماء الهوجاء . وكنا فى بعض الأحيان نندفع بسرعة نحو الساحل الأفريقى ، ثم نجذب الحبال ، ونحول اتجاه القارب فى محاولة للعودة إلى الاتجاه الصحيح ، وبدون مجاديف الدفة كان القارب يرفض أن ينصاع لأوامرنا . وكان الشراع يدفع به نحو الجنوب الشرقى أو الجنوب الغربى ،

ولا شيء بينهما ، وكلما هاجمتنا الريح اتجه أنف ر ع نحو الجنوب الشرقي ، حتى أصبح الساحل الأفريقي البعيد قريبًا منا . . . وهكذا رحنا نتخبط شمالا ويمينًا . . . كل واحد منا متعلق بحبل حتى القرد صافي اختار له حبلا وتمسك به . . .

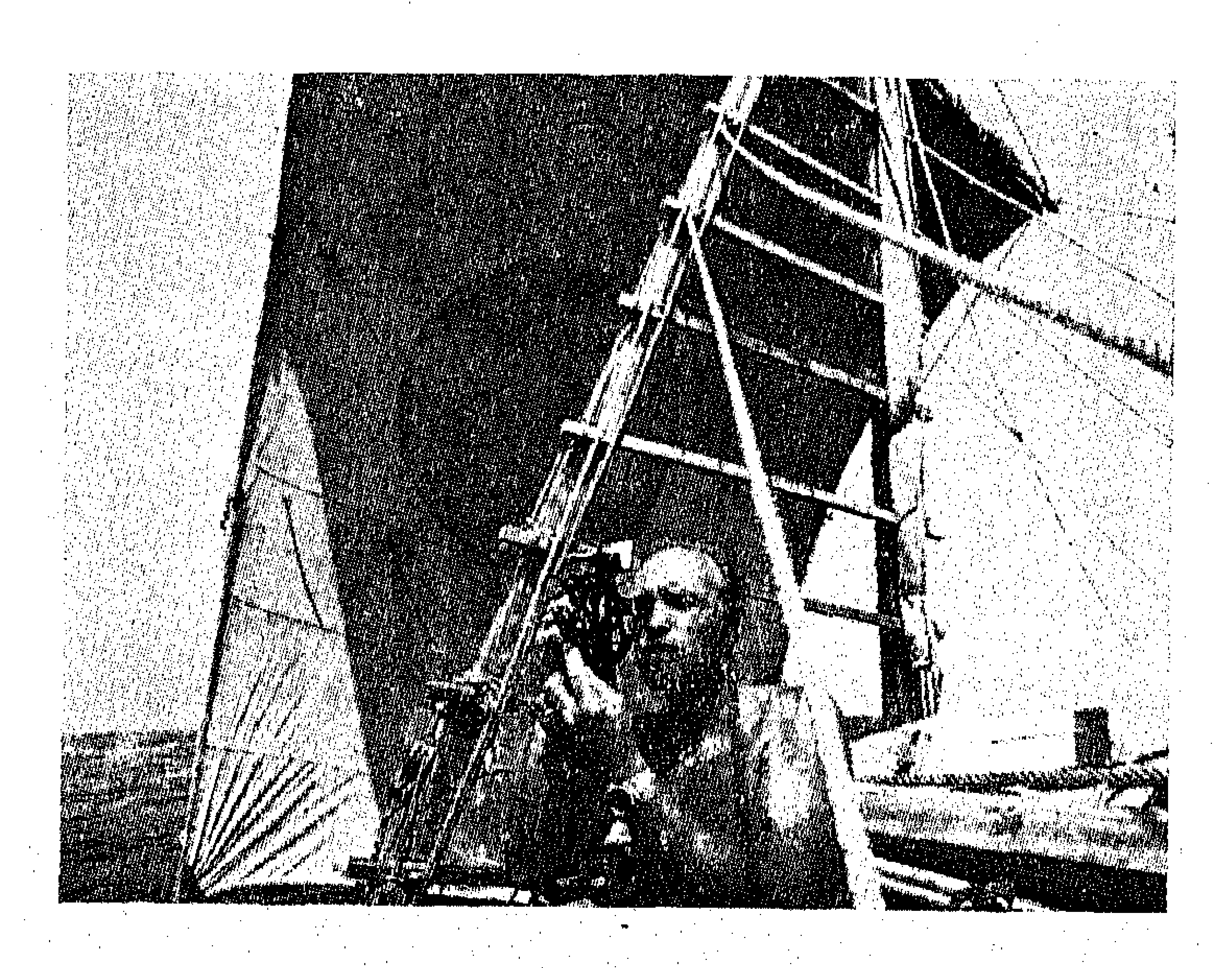
لم تهدأ ثائرة الريح طول اليوم فقررنا أن نحل الشراع أو نهبط به قليلا . ولكن الريح لم تمهلنا فطار الشراع ، فتعلقنا به جميعًا خوفًا عليه من الضياع أو الطيران فوق أمواج البحر العالية . وتشقق الصارى من أعلاه ، وتفككت الحبال الملفوفة حوله ، وتبعثرت أكوام البردى هنا وهناك . حتى خيل إلينا أن القارب على وشك أن يتفكك . ولعل الغريب أن أقوى شراع في العالم ، ما كان ليتحمل عنف هذه الريح العاتية بدون أن يتحطم الصارى . . . وبعد مجهود مضن استطعنا أن نجذب الشراع ، بوصة بوصة . وأثناء هذه المحاولة الجبارة فلت منا مجداف ، وسرعان ما احتوته الأمواج ، وقذفت به بعيداً عن القارب . وبعد أن استعدنا الشراع هدأ القارب وسار في طريقه المرسوم بعيداً عن الساحل .

ونظرت إلى كارلو وقلت : لقد أصبحنا من غير شراع ودفة . ولم يبق على هذا القارب شيء يستطيع أن ينفذ ما يصدر إليه من أوامر بشرية . . .

الطبيعة هي سيدة الموقف الآن تدير القارب حسبما تراه . . . وبمجرد أن نتوقف عن محاربتها فسوف نستريح ونمتع أنفسنا على قدر استطاعتنا . . .

وبدأنا ننظر حولنا . . . كل شيء هادئ . . . لا شراع ولا محرك ولا متاعب . . . وها نحن فوق قارب من البردى تتقاذفه أمواج المحيط وتياراته وتدفع به إلى الطريق الذى يحلو لها . . .

وزحف عبد الله على ركبتيه وجلس مسنداً ظهره إلى حائط المقصورة وجهاز الراديو الترانزستور على أذنه . أراد جورج أن يصطاد بعض السمك بينما تناول يورى برتقالة وراح يصنع لنفسه كأساً من الشراب. وأخذ كارلو يعبث بمحتويات السلال ليعثر على طعام مناسب واستلقى سانتياجو فى المقصورة يحصى القوارير التى كانت تحتوى على البلح والزيتون والبيض . . .



نورمان البحار الأمريكى يعلن أننا نتجه نحو كيب جوبى وهو ينظر خلال جهاز قياس الزاوية

لم يعثر صاحبنا جورج على سمكة واحدة وسط ذلك الجسم المائى العظيم ، لكنه اقترح علينا فكرة ممتازة لماذا لا نقيم شراعاً ؟ فمهما كان صغيراً فإنه سوف يدفع القارب. ونجحت الفكرة . وامتلأ الشراع بالهواء واتجهنا بالقارب نحو الجنوب الغربى ، ومرت خمس عشرة دقيقة بعد تركيب الشراع الجديد فى عصر اليوم الثانى عندما هبت ريح شديدة صفعت الشراع صفعة شديدة تلتها صفعة أخرى كاد يتحطم بعدها الصارى وفى الصدمة الثالثة تحطم الصارى وسقط على السطح كأنه قطع من مخالب وحش غاضب . . .

ومرت بقية اليوم بهدوء ونحن فى داخل المقصورة بينما الريح تزأر فى الخارج . ولم يقع نظرنا على سفينة واحدة . وتقاسمنا الحراسة الليلية ، ولم نكن لنخاف شيئاً غير الاصطدام بالسفن أو الشاطئ ما دمنا ندور حول الشاطئ الأفريقى . وبعد منتصف الليل بنصف ساعة فقط استيقظت مذعوراً وقد انكفأ فوقى كارلو ، وهو يهزنى بعنف ، وفى يده مصباح زيتى . وهمس الرجل فى أذنى بأن أضواء قد ظهرت على طول الأفق ، فقد جرفنا التيار جانباً . فأسرعت خارجاً ، ورأيت أنواراً كثيرة فلا بد أنه شاطئ مراكش . ويبدو أننا كنا نقترب من الأنوار بسرعة خاطفة . . . وخرج الرجال الآخرون على الأثر ليروا ماذا حدث وكان علينا والحالة هذه أن نجدف بالقارب لإنقاذ أنفسنا من الاصطدام بالصخور. يبدو أننى وكارلو رأينا نوراً أخضر ظهر فجأة ثم تبعه نور أحمر وفهمنا على الأثر أن أسطولا مبعثراً من مراكب الصيد ذات القلع

الواحد تتجه نحونا .. وعاد البحارة إلى داخل المقصورة بعد أن اطمأنوا، وبعد قليل مرت أمامنا ثلاثة قوارب ، ومرق القارب الرابع بخفة وبذلك نجونا تماماً من احتمال اصطدام هذه القوارب بنا ثم اختفت من أمامنا فى الظلام . . .



جورج سوريال يقطع بسكينه قطعة من اللحم المجفف

وكان اليوم الرابع دافئاً وهادئاً أيضاً . وظهرت الشمس من بين طيات السحاب ، لم نر فيها بوضوح سلسلة من الجبال على البعد . وبرغم افتقارنا إلى الأجهزة التى تحدد مكاننا بالضبط وبرغم فشلنا فى الاتصال بميناء صافى فقد أكد لنا (نورمان) أننا لا بد سنعبر جزر كنارى ، وكنا

نجرى فى أخطر ممر مائى بين فورت فنتورا Fuerte Ventura وكيب چوبى . وأكد لنا كذلك سانتياجو الذى قضى شبابه فى جزر كنارى أن ميناء كيب چوبى Cape Juby كان بمثابة رعب قاتل [١] يعمل له البحارة كل حساب ، فالصخور المختفية فى الرمال كثيراً ما تبرز على هيئة لسان فى تيار المحيط الخطر عند ما يتجه الساحل الأفريقى نحو الجنوب . . .



تحطم إناءبه بندق فسطا عليه القرد صافى

---

(١) يقع ميناء كيب چوبى أو « يوبى » على الساحل المغربى وكان الأسبان يسمونه « كابويوبى » . (الناشر)

كنا نجلس على كومة الشراع نأكل ، عند ما سمعنا صرخة مدوية من عبد الله ، بعد أن انتهى من طعامه واستعد للصلاة ، ثم ترامت إلى آذاننا هذه الكلمات : « خيول . . . خيول . . . لا بل سيد قشطه » . فنظرنا فى الحال إلى المكان الذى كان يشير إليه وبعد لحظة ظهر حوتان كبيران راحا ينظران بدورهما إلينا بعيون ناعسة ، ثم أطلقا نافورتين من الهواء والماء ، ولم ير عبد الله مثل هذه الوحوش فى بحيرة تشاد ، ورفع أحد الحوتين ذيله وكأنه يودعنا . . .

وفى الليل هبت الريح بعنف من جديد فتبادلنا الحراسة المزدوجة خوفاً من شواطئ « كيب چوبى » الرملية كما راقبنا الحبال بدقة تامة فلم يقطع منها حبل واحد ولم تفلت لفة من لفائف البردى من مكانها ، ولكن المقصورة بأكملها كانت منحرفة نحو الجانب الأيمن للقارب ، ولم يستطع واحد منا أن ينام على جانبه بدون أن يتدحرج ، أما البحارة الآخرون فكانوا ينامون كل أربعة فى صف واحد . . .

وظلت العاصفة تزمجر طوال الليل ، والأمواج ترتفع إلى خمسة عشر قدماً . وفى صباح اليوم السابع بدأ رع فى حالة تفكك أو انهيار ، كما أن الرطوبة المنبعثة من البحر جعلت أعواد البردى تنتفخ وتصل إلى نقطة الانفجار . وكان من سوء حظ القارب أنه عانى فى هذه الأيام السبعة ما لم يعانه قارب آخر فى حياته البحرية . وكنا أكثر المخلوقات البشرية إعجاباً بهذا القارب الغريب الذى تحمل كل هذه المتاعب والمصاعب وتحدى العواصف والأعاصير ، وهو كومة من القش . . . وعندما أعلن

نورمان أننا نتجه نحو الصخور كان علينا أن نختار بين أحد أمرين :

أن ننشر الشراع فى مواجهة الريح الشمالية أو نذهب مباشرة فى اتجاه الأرض . وقررنا أن ننشر الشراع ونجحنا فى دفعه ووضع مجداف الدفة فى الماء . . .

وطرنا كسمكة طائرة فوق الأمواج بعيدين عن الأرض ، وبعد قليل سمعنا صوت طرقعة ، فقد انقسم المجداف القوى كأنه عود ثقاب . . . ولكننا برغم هذه المفاجأة استطعنا متكاتفين أن نحول القارب إلى مساره الصحيح بقية اليوم ، بدون أن يتحطم عود واحد من أعواد البردى أو تؤثر فيه العاصفة الهوجاء . . .

وفى اليوم السابع كانت السحب قد انتشرت فى السماء وفوق القارب رع . ومن بعيد لاحت السماء زرقاء اللون ، فعرفنا أن جزر كنارى وراء هذه السحب ، واتخذ (رع) طريقه نحو السماء الزرقاء . . . اختفى الساحل الأفريقى تماماً من أمامنا ، لذلك قررنا أن نحتفل بالمناسبة ، فذبح عبد الله ثلاث دجاجات . وكان اليوم الحادى والثلاثين من شهر مايو ، وقد قضى القارب فى الماء أربعة عشر يوماً بدون أن يحدث له أى خلل أو عطب ، بل على العكس كان قوياً لم يتحطم منه عود بردى واحد . وكنا قد أبحرنا لمدة أسبوع بعد أن تركنا (صافى) إلى (كيب چوبى) أى ، أبعد من المسافة بين نهر النيل وبابيلوس Byblos فى المملكة الفينيقية . أو المسافة بين مصر وتركيا . وبذلك نكون قد أثبتنا أن المصريين كان فى استطاعتهم أن يمخروا عباب البحار والمحيطات بقواربهم المصنوعة من

نبات البردى فى أى وقت كان على سواحل آسيا الصغرى بدون معونة من قوارب مصنوعة من الخشب . . .

وفجأة سمعت من يقول : « بيوت بيضاء ! » فأسرعت لألقى نظرة ، فقد اقتربنا فعلا من كيب چوبى . ففى الوقت الذى كنا نحتفل فيه بنجاحنا كانت الأخطار كامنة تحتنا فقد مكثنا أسبوعاً كاملاً نصارع فيه من أجل الابتعاد عن الساحل وها نحن نقترب منه . . .

الباب التاسع

البحر يقوم بالمهمة

أصبحت جزر كنارى خلفنا . وفى ثمانية أيام كنا قد قطعنا نفس المسافة عبر بحر الشمال من النرويج إلى إنجلترا . والسفينة التى لا تفقد معركتها مع البحر فى مثل هذه الرحلة الطويلة يطلق عليها عادة « سفينة البحر التى لا تبارى » . وبرغم الدفة المحطمة ، والمجاديف المشقوقة ، والساحة المبتورة ، وبرغم وجود بحارة غير متمرنين أى غير معتادين ركوب البحر ، وبرغم قسوة العواصف والأنواء والأمواج العالية التى ترتفع كالطود الشامخ ، برغم ذلك كله فقد كان القارب رع خفيفاً نشيطاً مبتهجاً . . .

فقد أبحرنا به فى أعالى البحار التى لا تشبه من قريب أو بعيد مياه النيل الهادئة . وعبرنا جزر كنارى بدون أن تلتقط عيوننا أى أثر للأرض . والآن وقد تقوست السماء الزرقاء ، رأينا بوضوح بساط السحاب المحدود فوق الساحل الذهبى الأفريقى ، الذى أشار نحو المحيط الذى سوف نعبره . أما مكان جزر كنارى فقد حدده قطاع البراكين غير المنظورة التى ترتفع إلى اثنى عشر ألف قدم وقد دأبت على أن ترسل سيلا من الرطوبة إلى الأجواء العليا الباردة ، ثم تتركز فى سحب متعاقبة تحملها الرياح فوق البحر كأنها أشرطة من الدخان تنبعث من سفينة ضخمة .

أما عبد الله الذى لم يعرف جزراً غير تلك التى تطفو على سطح بحيرة تشاد ، فقد ارتعب عند ما عرف أن هناك جزراً فى هذه البحار الهائجة تعيش عليها مخلوقات بشرية . وأراد أن يعرف هل هم فى مثل لون بشرته أم بيض مثلنا . . . أما سانتياجو الذى عاش ردحاً من حياته فى جزر كنارى وهو أيضاً من علماء الأنثروبولوچيا — علم الإنسان — فقد تحدث إلينا طويلا عن الجوانشيين Guanches الغامضين الذين يعيشون على هذه الجزر عند ما اكتشفها الأوربيون قبل أن تكتشف أمريكا . وكان بعض هذه القبائل الأصلية فى جزر كنارى سمر البشرة قصار القامة ، فى حين كان بعضهم الآخر فاتحى اللون طويلى القامة ، عيونهم زرقاء كزرقة البحر ، وشعورهم ذهبية ، ولهم أنوف قَنْو أو معقوفة . وفى إحدى اللوحات التى رسمت بالطباشير أو الپاستيل فى عام ١٥٩٠ ظهرت مجموعة من الجوانشيين بلحاهم الذهبية ، وشعورهم الطويلة المنسدلة فى موجات ناعمة على ظهورهم .

ويذكر سانتياجو أحد هؤلاء الجوانشيين وكان طالباً معه فى جامعة أكسفورد وكأنه مومياء جاءت من جزر كنارى . . . وكان السكان الأصليون لجزر كنارى يجيدون التحنيط ، وتربنة الجماجم ، تماماً كالمصريين القدماء . وحقيقة الأمر أن الجوانشى كان يشبه الڤايكنج الإسكندناڤى ، أكثر من أى جنس آخر له صلة بالقارة الأفريقية . وقد أثار هذا الشبه جدلا كبيراً عن الاستعمار الإسكندناڤى لما قبل التاريخ . وقاد هذا النقاش الصاخب إلى احتمال أن تكون جزيرة كنارى هى قارة

أطلنطيس Atlantis المفقودة . ولكن التحنيط وتربنة الجماجم لم تكن معروفة فى أوربا القديمة ، لذلك ربط بعض المفكرين والعلماء الحضارات القديمة لشمال أفريقيا بحضارة الجوانشيين . . . أما أهل مراكش الذين يعرفون باسم البربر فقد أجبرهم العرب على الرحيل جنوبًا حتى جبال أطلس . وكان ذلك منذ ألف عام مضى ، وكانوا جنسًا مختلطًا ، تمامًا كالجوانشيين ، بعضهم قصير القامة ، أسمر اللون ، وبعضهم طويل القامة ، أبيض اللون ، لهم عيون زرقاء ، صاخبة كزرقة البحر أيضًا . وهناك سلالات من هؤلاء البربر فى القرى المراكشية النائية أو المنعزلة حتى يومنا هذا . . .

تطلعنا إلى بساط السحب ، وإلى فوهة البركان الظاهر فى جزر كنارى ، وفى الجو الصافى ، كانت قمة البركان ترى بوضوح من الساحل المراكشى . ولم نكن فى حاجة للذهاب إلى إسكندناوه أو الذهاب إلى بلاد الجوانشيين ، ولا بد أنهم اختلطوا مع سكان أقرب قارة لهم ونجحوا فى عبور نفس الممر البحرى الذى نعبره نحن الآن على قارب من البوص أو الورق . . .

وكان غزو هؤلاء الجوانشيين ذا أثر ؛ فمن يكونون ؟ ولكن كيف جاءوا إلى هذه الجزر ؟ وعندما عثر عليهم الأوربيون بأجيال ، قبل وصول كولمبس إلى أمريكا ، لم يتملكوا قوارب من أى نوع كانت ولا أطواف ولا مراكب . وبرغم ذلك فإن أشجاراً ضخمة كانت تنمو فى جزر كنارى ، وعلى ذلك لم ينقصهم الخشب . وكان الجوانشييون البيض والسمر

فلاحين ورعاة يربون الماشية ، وقد تمكنوا من إحضار الخرفان معهم من أفريقيا إلى هذه الجزر النائية . ولكى يتركوا الساحل الأفريقى مع نسائهم وخرفانهم فلا بد أنهم كانوا بحارة أو صيادين وليسوا مجرد رعاة أغنام . . . إذن فلماذا نسى هؤلاء قوارب أجدادهم ؟ هل سبب ذلك أن أجدادهم لم يعرفوا أى نوع من القوارب غير قوارب البردى التى أطلقوا عليها اسم « ماديا » وهى قوارب البردى التى عاشت على الساحل الشمالى لمراكش حتى يومنا هذا ؟ . . .

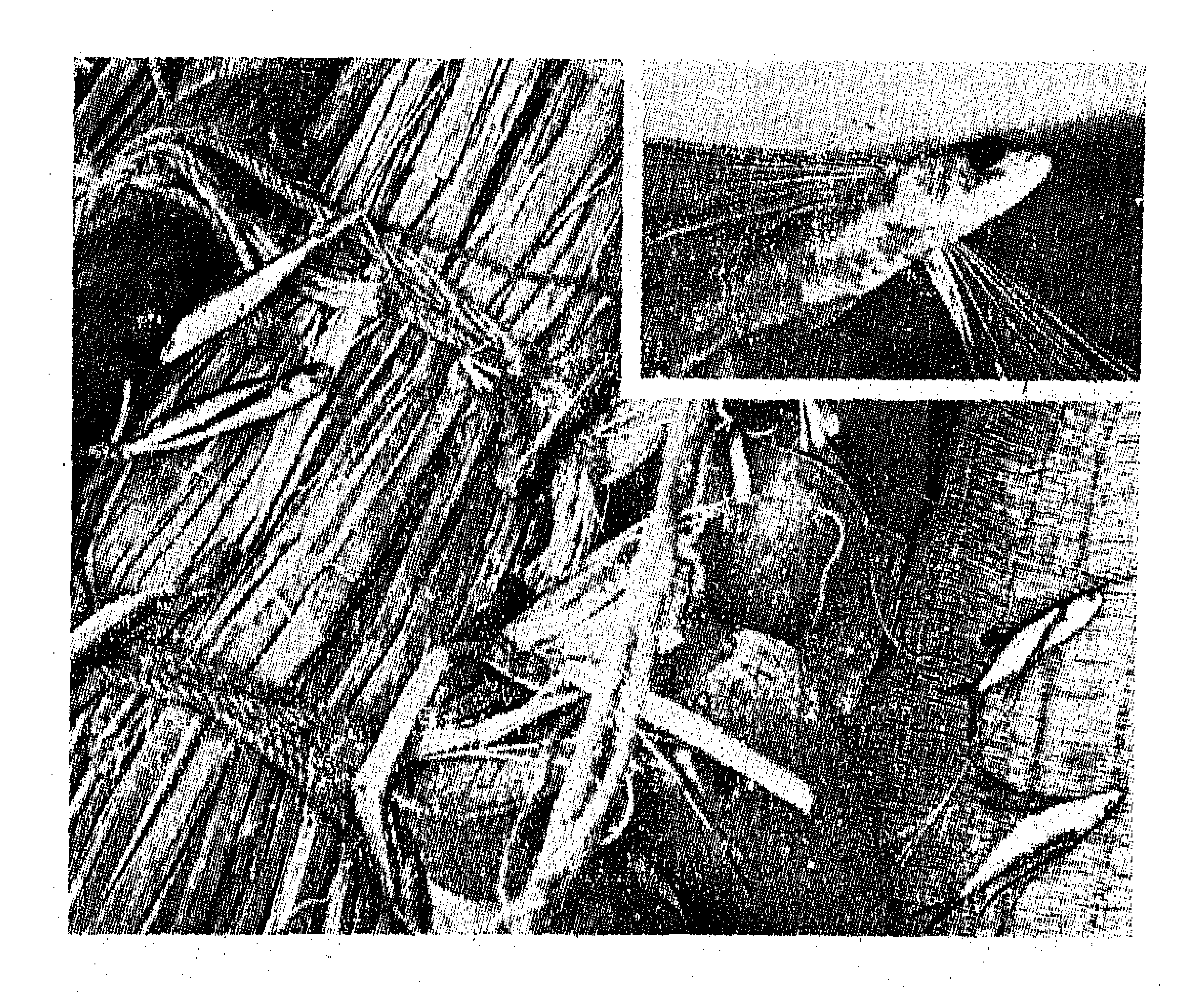
وفجأة بدأ القارب رع يزمجر ويغضب فنسينا الجوانشيين ، وأسرعنا نحو الشراع الذى بدأ ينطوى . . . وكانت الريح لا تزال كما هى ، وبدأت مجموعة من الأمواج تنهمر على القارب وتغمره ، ولكن القارب الورقى الذهبى لم يعبأ بهذا السيل الجارف من المياه ، وراح يرفع نفسه فى عظمة وخيلاء ويسخر بالبحر من تحتنا . فالأمواج الشامخة تتحطم وتتسرب أو تفر إلى البحر من بين فتحات أعواد البردى الأفريقية القوية . . . وأصيب عبد الله بصداع وفقد شهيته فأرسله يورى إلى فراشه ، وجلسنا نأكل الفاكهة عند ما صرخ ، صوت « احذروا ! ! » وأسرعنا ننظر إلى صوت التحذير أو النذير ، فإذا بموجة عاتية تندفع نحونا فى سرعة وإصرار ولكنها تحطمت تحت حزم البردى وتبعتها أمواج أخرى لاقت نفس المصير . وعند ما يتصرف البحر على هذا النحو بدون سبب نعرف على الأثر أننا دخلنا فى اتجاه تيار المحيط القوى القادم من البرتغال والذى يندفع بين جزر كنارى . وعلى ذلك فقد كنا نسير فى طريقنا الصحيح يرفعنا تيار

كنارى نفسه وهو يتجه نحو خليج المكسيك . . .

كان عبد الله غارقاً فى النوم ، فلم ير الحيتان الخمسة التى ظهرت أمامنا ، وسارت بحذاء القارب ر ع ، ثم اختفت بسرعة قبل أن يصورها كارلو — ثم طقطق المجداف الوحيد الباقى لنا وكان علينا أن نفعل شيئاً . . فهل نتجه نحو كيب ڤردى Cape Verde ونحصل على خشب قوى ؟ وكان الرد لا . . . لأن على القارب صارياً من الخشب المصرى القوى — فاستخدمناه برغم ثقله كمجداف . وبرغم أن القمر كان يغمر البحر الهائج ، إلا أن نفوسنا استكانت واطمأنت ، فقوة رع غير محدودة لا تستطيع الأمواج برغم علوها وقوتها أن تقهره . وكأن البحر يكره الخشب لذلك يحطمه ، أما البردى فكان البحر يكن له كل ود وتقدير . وبعد مجهود مضن شاق استطعنا أن نرفع الصارى الخشبى المصرى إلى أعلى رع ونربطه بحبال سميكة لا تقوى الأمواج على اقتلاعها . وذهبنا إلى النوم بعد أن قام بعضنا بالحراسة خوفاً من الاصطدام بالسفن التى تمخر عباب المحيط فى الليل . . . ومكثنا ثلاثة أيام ونحن نبحر بدون مشاكل أصلحنا خلالها بعض ما ألم بالمجداف الخشبى من تصدعات .

كانت الريح تهب من الشمال ، محملة بالبرودة ، ورع يندفع بقوة نحو الغرب ، بسرعة ستين ميلا بحرياً فى كل أربع وعشرين ساعة ، أو بسرعة عقدتين ونصف عقدة فى الساعة . وبعد مرور أحد عشر يوماً قطعنا ٥٥٧ ميلا بحريا أى أكثر من ألف كيلو متر .

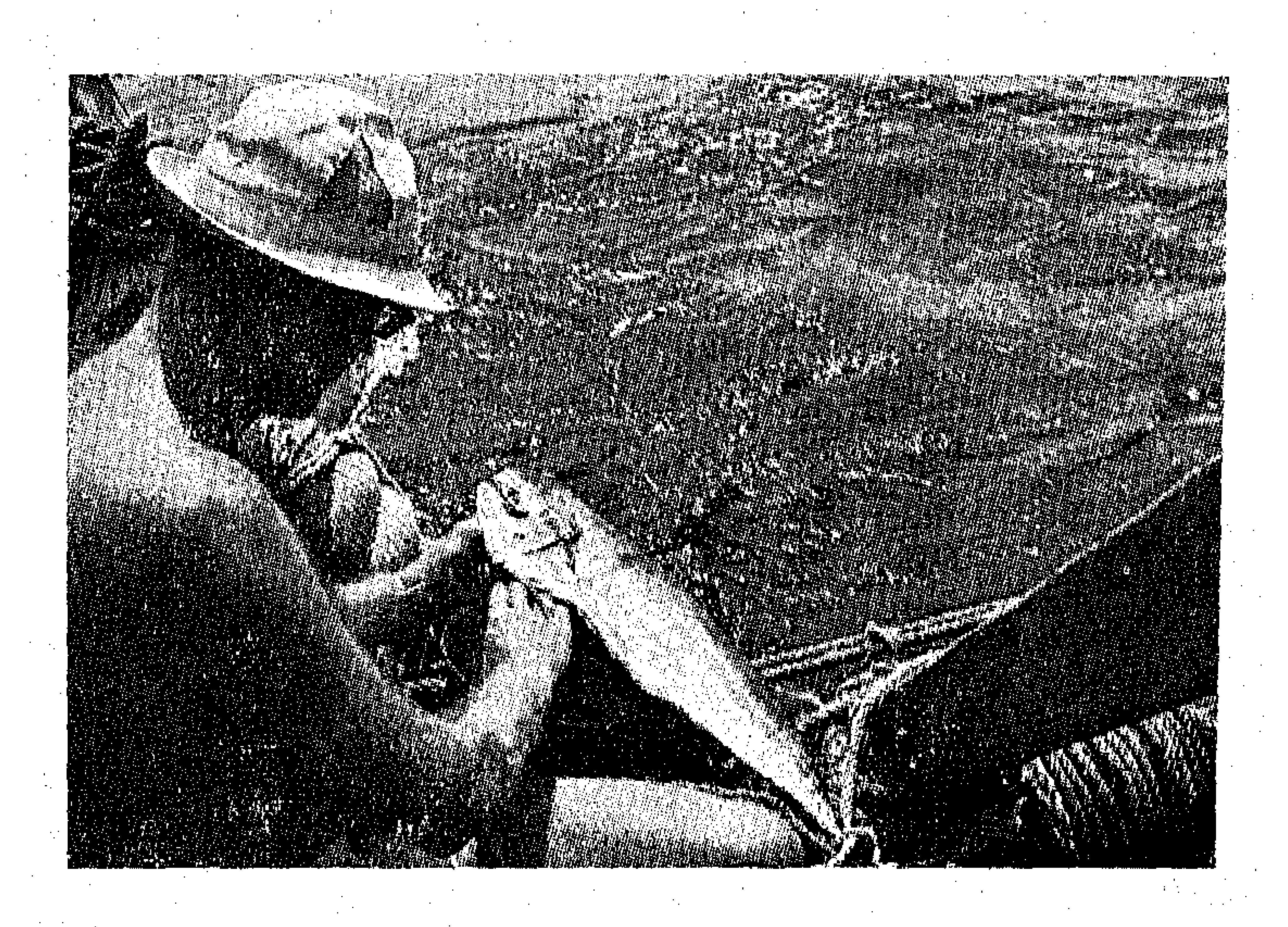
ولمدة يومين كانت البواخر تظهر بكثرة من حولنا . وذات مرة رأينا



الأسماك الطائرة وهى تسقط على القارب بكميات كبيرة

ثلاث سفن من عابرات المحيط الضخمة . إذن فلا بد أننا فى طريق الدائرة العظمى حول أفريقيا . . . وكان علينا أن نضع مصباح البرافين فى أعلى الصارى ، لكى لا يصطدم بنا شىء فى الليل . ولكن سرعان ما أصبح البحر خالياً من الرحالة ، ولم يظهر أمامنا غير مدارس من الدرافيل ترقص من حولنا . واقترب بعضها منا بدرجة أننا كنا نربت على

رءوسها . ومرت أمامنا أسماك القمر الكبيرة ، ورأينا لأول مرة بعض الأسماك الطائرة وهى تطير كالرماح . وكانت السماء خالية من المخلوقات الحية . وبعد مرور وقت ظهرت أسراب من طيور النوّ .



ثور هايردال يمسك بسمكة من نوع « دورادو »

ومن عادة هذه الطيور أنها تنام على الماء . . .

أعجب ما كان فى أمر هذه الرحلة أن السماء فى الليل كانت مرصعة بالنجوم ، والكواكب ، والسدم ، والمجرات . والبحر من تحتنا مرصع بالحيوانات البحرية الدقيقة المنيرة — البلانكتون — التى تلمع كضوء النيون

من تحت البساط الأسود الناعم الذى نسبح فوقه، وكأننا نسبح تحت سماء الليل، فوق مرآة، أو كأن البحر مصنوع من الكريستال الصافى لا قرار له ولا قاع . . .

ولم يكن فى هذا الوجود غير القارب الذهبى وهو يتهادى على صفحة المحيط . يسخر بالأمواج من حوله وشراعه المربع الضخم يحجب نجوم اللامعة . هذا القارب المصرى العظيم استطاع فى هذه الليلة أن يعود بالزمن عدة ألوف من السنين . إن مثل هذا القارب لم يعد يرى فى البحار المفتوحة اليوم . . . فقارب من البوص والبامبو والخشب والحبال يقوم بكل شىء ويندفع بإصرار نحو الطريق إلى أمريكا . . .

لم نكن نعيش فى عصر الذرة والصاروخ ، بل كنا نعيش فى وقت كانت فيه الكرة الأرضية كبيرة ومسطحة ومليئة بالبحار والقارات المجهولة . . .

وفى الرابع من شهر يونية بدأ البحر الصاخب يهدأ من حولنا . وفى صباح اليوم التالى استيقظنا لنشهد عالمًا جديداً . . . وزارنا خمسة حيتان كبيرة وربما كانت نفس الحيتان التى زارتنا من قبل . وكانت رائعة رشيقة . . .

كان النهار جميلا ودافئًا فتشجع جورج وخلع ملابسه وغاص فى البحر واختفى تحت رع ، ثم ظهر فغاص غيره بينما جلس عبد الله فى المقصورة هادئًا يفكر . . . .

إذا لم تهب الريح فلن نصل إلى أمريكا مطلقًا وبدلا من أن نقطع

مائة كليومتر فى اليوم انخفض ذلك إلى خمسين كليو متراً فقط . . .

ظل البحر هادئاً حتى اليوم التاسع من شهر يونيه ، وكان ركاب رع ينامون معظم النهار . وأبدى نورمان بعض مخاوفه ، فالتيار يجرف القارب نحو الجنوب الغربى . وإذا لم تهب الريح ، فسوف يقع القارب فريسة لتيارات الساحل فى موريتانيا والسنغال . وفى اليوم السادس من شهر يونية اتجهت نحونا عابرة ضخمة من عابرات المحيط ، ثم مرت بجوارنا فى طريقها إلى أوربا . وبعد ثلاثة أيام استيقظنا لنرى البحر ، وقد امتلأ بقطع من الأسفلت والأخشاب ، واختفى لون المحيط الأطلنطى



١٥ صندوقاً بها ملابس أفراد البعثة وحاجياتهم الشخصية

الأزرق الرائق الجميل . وعامت حولنا الزجاجات الفارغة وكأننا فى ميناء. ولم أر شيئاً كهذا خلال المائة يوم التى قضيتها وأنا على ظهر الطوف « كون تيكى » — وأصبح واضحاً لنا أن الإنسان لوث هذا الجسم المائى العظيم . . .

وفى العاشر من يونية اشتد هبوب الريح وفى اليوم نفسه ذبح عبد الله آخر دجاجة ، ولم يبق غير البطة . وعند ما ألقينا بالقفص الذى كانت تعيش فيه مع الدجاج الصيّاح لم يجرؤ واحد منا أن يذبحها ، فتركناها ، وأسميناها سندباد ، وربطنا أحد ساقيها بحبل فى حين ظل القرد صافى محتفظاً بمكانه فى منطقة الكابينة . . .

وفى أثناء الليل اشتد هياج البحر ، وكان من العسير أن يقف الإنسان على جسر القيادة ولا يرى شيئاً غير شراع منشور من فوقه مصباح زيتى . وبلغ بنا التعب أقصاه فى الليل لا سيما فى أوقات الحراسة . وفى النهار كان القارب رع قد تفكك أكثر من ذى قبل وأصبح الصارى غير ثابت فى مكانه. وفى القوارب المصرية القديمة كان الصاريان مربوطين فى فراغ ضحل بكتلة . من الخشب موضوعة فوق قاعدة البردى وقد ثبت بقطعة من الخشب بجزئه الأفقى ، وربطت بإحكام إلى القاعدة ، كما ربطت النهاية الأفقية بالجزء الأسفل من الصارى . أما فى القارب رع فقد تفككت هذه الحبال ، كما هدد الصارى بالقفز من مكانه ، فاضطررنا إلى ملء الفراغ فى القاعدة بقطع من الأخشاب ، ونجحنا آخر الأمر فى تثبيته .

كان البحر مليئاً بالحياة فى ذلك اليوم ، فالأسماك الطائرة تهطل

كالمطر من حولنا ، وأسماك القمر تظهر من قريب أو بعيد ، كبيرة دائرية الشكل ، ساكنة الحركة . وأعلن نورمان أننا انحرفنا نحو الجنوب ، وفى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة غاص الجانب الأيمن لرع فى الماء وأصبح نهباً للأمواج . وفى صباح اليوم التالى كانت الريح الشمالية قد اشتدت حدتها . وحدث أن رأى يورى لأول مرة فقاعات زرقاء على وجه المياه فاحتواها بين يديه ولم يسبق له أن رأى « رجل الحرب البرتغالى » Portuguese Men-O'-War وهو الاسم العلمى لهذه الفقاعات الزرقاء ، وبعد لحظات كانت هذه الفقاعات الزرقاء تعصر يديه وذراعيه ، وهى ليست من الحيوانات الفردية بل مستعمرة كاملة من المخلوقات الدقيقة ، تعيش فى تكافل معقد لكل منها صفات خاصة وعمل خاص . والغريب أن فى المستعمرة الواحدة مجموعات من الصيادين والجنود الذين يدافعون عن أفرادها فيطلقون حامضاً حارقاً فى أجسام ضحايا وأعداء المستعمرة ، وكثيراً ما تقتل هذه الفقاعات الزرقاء المخلوقات البشرية .

انتشرت الحروق الشديدة فى يدى يورى وسرى الحامض إلى جهازه العصبى وشلت عضلاته وبدأت تؤثر على قلبه . وبذل طبيب القارب رع مجهودات كبيرة لمدة أربع ساعات كاملة وهو يعالج نفسه . . .

وفى يوم ١٣ يونية كانت الرعود تزأر كالأسود الغاضبة وأرسل البحر أطناناً من الأمواج فوقنا ، ورأينا منطقة الدفة وهى تغوص تدريجياً تحت ضغط الجبال المائية . ولم يكن هناك ما نعمله بل كان علينا أن ننتظر حتى تنحسر هذه الأطنان من مجارى المياه على جانبى رع البطل الذى

عانى ما لم يعانه قارب آخر فى الوجود . وكان عبد الله برغم ذلك يؤكد أننا لن نغرق ما دامت الحبال قادرة على الصمود . . .

ومن ١٤ يونية إلى ١٧ يونية ظل البحر على حاله وبدأ جورج يشكو من آلام فى ظهره ، كما مرض عبد الله ولكنه عالج نفسه سريعاً . . . وشرع الجسر ينهار وكان علينا أن نقويه بالحبال . . .

ومرة أخرى بدأ الصارى يقفز من حذائه الخشبى ورع يرقص بين الأمواج ويصدر صوتاً خشناً لم يسبق أن سمعناه ، والتوت الجدران ، والقاعدة ، والسقف . واضطر جورج ويورى ونورمان أن يسبحوا تحت القارب ثم صعدوا إلى السطح ليخبرونا أن البردى من تحت الماء فى حالة جيدة وكان علينا أن نفعل شيئاً . . . ثم انفصل مجداف الدفة وبعد معركة عنيفة استطعنا أن نعيده إلى مكانه . لو كان رع مصنوعاً من الخشب لتحطم وانشق نصفين . . .

كان لا بد أن نضع حداً لفيضان الماء فجمعنا كل البردى الذى ادخرناه للطوارئ وشرع عبد الله يقوى به لفات البردى . ولكن فوران المياه كان عظيماً . وطار عبد الله أكثر من مرة إلى عرض البحر ، ولكنه عاد وهو يبتسم وحبل النجاة حول وسطه . . .

وحدث ما كنت أخشاه ، فكلما ارتفعنا بالسد اندفعت المياه، ووجدت لها مكاناً على القارب حتى ذيله لأن قاعه كان قد امتص كميات كبيرة من الماء ، وغاص بدوره . فحاولنا إزالة الحائط الذى بناه عبد الله ، لكن المياه كانت قد ملأت صندوق أطواق النجاة فزاد ثقل القارب،

واضطررنا إلى قطع الحبال لنفرج عن بعض قوارب النجاة فوق السطح حتى يرتفع القارب . . .

وفى يوم ١٧ يونية بلغت العاصفة ذروتها ، واتجهت الريح نحو الغرب وبدأ البحر الصاخب يهدأ بعد ثورته العارمة . ويبدو أننا عدنا مرة أخرى إلى التيار الرئيسى وأبلغنا نورمان أننا قطعنا ثمانين ميلا بحريًّا أو ١٤٨ كيلومتراً خلال الأربع والعشرين ساعة السابقة . وخلال العاصفة الهوجاء قطعنا ٥٠٠ ميل بحرى من الساحل الغربى الأفريقى متجهين مباشرة إلى جزر كيب ڤردى غرب داكار ، وكانت الرياح الشمالية والتيار يحملاننا فى خط مستقيم نحو مجموعة الجزر التى قد تظهر فى أى وقت . وقد أمدتنا هذه المخاطر بشعور عدم الارتياح والخوف من الاصطدام بالصخور .

كان يوم ١٨ يونية عاصفًا ، فجزر كيب ڤردى لا بد أن تكون أمامنا ، لكن الضباب الكثيف قد حجبها عنا . فمنذ أسبوعين عبرنا جزر كنارى ونحن على مقربة منها بدون أن نراها . أما اليوم فالمشكلة أكثر تعقيداً . فقد مكثنا فوق حزم البردى أربعة وعشرين يومًا ومع ذلك والبردى سابح فى ماء البحر لأكثر من شهر . وسبح رع أكثر من ألفى كليو متر حول الساحل الشمالى الغربى لأفريقيا . أما الآن فإن الرحلة الحقيقة عبر المحيط الأطلنطى من قارة إلى قارة سوف تبدأ . فإذا كان المصريون القدماء قد أبحروا فعلا من مصب النهر كما أبحرنا من ميناء صافى فلا بد أنهم بلغوا نهر الدون فى روسيا أو فيما وراء جبل طارق . والبحر الأبيض المتوسط

ليس كبيراً بالدرجة التى يجهد فيها قارباً من البردى .

وفكرنا فى التخلص من قارب النجاة المصنوع من الكاوتشوك ودارت مناقشة حادة بيننا واستقر رأينا على أن نتركه لعدة احتمالات: منها الهبوط إليه فى حالة الطوارئ القصوى أو الاصطدام بسفينة أو بصخرة من الصخور ، ثم احتمال اشتعال النار فى رع ، واحتمال آخر ربما يغرق القارب من تحتنا فبعد شهر واحد لا بد أن يكون قد امتص كميات كبيرة من الماء أو ربما يعطب وأخيراً قد يحدث فى المحيط طوفان وعلى الأخص



أعضاء الرحلة فى أوقات راحتهم يشربون فى نخب نجاحها

ونحن نقترب من جزر الهند الغربية ، وبرغم أننا عاصرنا أكثر من عاصفة هوجاء ، ولكن إذا حدث طوفان كانت الكارثة ، ولن نستطيع الهبوط إلى قارب النجاة المصنوع من الكاوتشوك . . .

ولكننا أعدنا التفكير ووازنا الأمر جيداً ثم أنزلنا القارب على سطح ر ع وقطعناه إلى شرائط ضيقة شددنا بها حزم البردى الغارقة فى الماء . وحدثت المعجزة وبدأت الدفة ترتفع بقدر ، استطعنا عن طريقه التحكم فى القارب وبدأت الأمواج تنحسر ولا تملأه من الداخل .

وفى اليوم التاسع عشر من يونية كان سطح ر ع قد جف وأصبح كبساط ناعم . . .

أشار سانتياجو إلى ضوء يشع من بعيد يتجه نحونا وكان الضوء لقارب يصدر إشارات سريعة لم نستطع قراءتها ويبدو أنها كانت تسأل عن شىء . . . فأرسلنا إلى القارب إشارات سريعة : « نعم . . . ر ع نعم ر ع » واقترب القارب منا وظننا أنه من قوارب السواحل فى كيب فردى ، ولكنه كان يندفع بسرعة وأخيراً جاء الرد « رحلة سعيدة يا ر ع » . . .

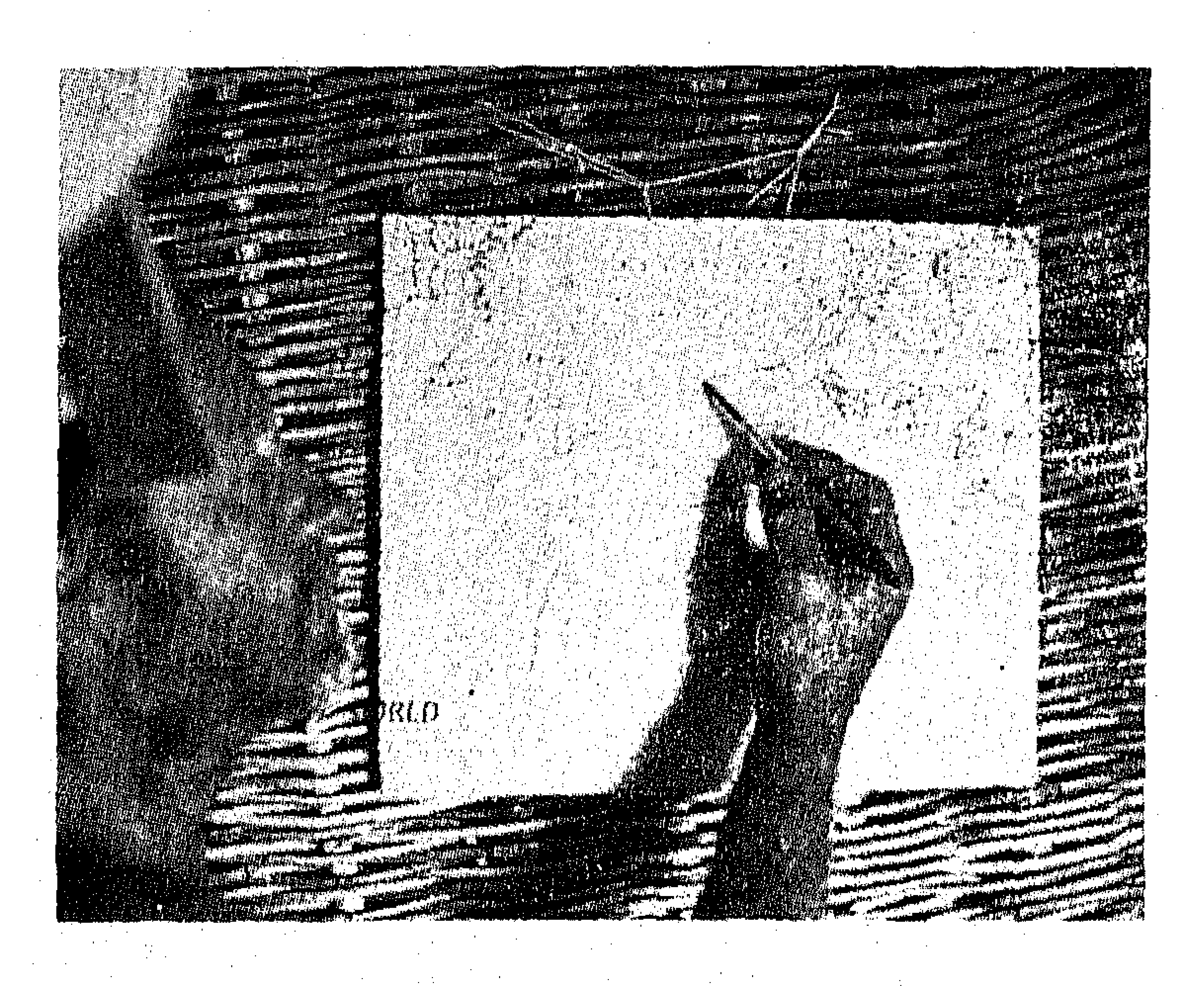
ثم استدارت السفينة واختفت فى ظلام الليل . . .

وبعد ساعتين سمعت طرقعة شديدة فقد تحطم مجداف الدفة ولم يصبح لدينا أى شىء ندير به القارب فصرخت لأوقظ كل إنسان . . . وصرخت الحبال بدورها وهطلت الأمطار فألقينا بالمرساة ثم هدأ كل شىء . . .

وشعرنا بأننا قد تركنا وحدنا فى هذا المحيط الكبير وغلفنا الظلام ،

ولم نعد نرى أى ضوء أو سفينة . وجاء دور يورى فى الحراسة فربت على على كتفيه وقلت :

– حراسة سعيدة يا يورى . . . لن تصادفك مشاكل من أى نوع لانه ليس لديك شيء تدير به دفة هذا القارب . . .



القلم يشير إلى المسافة التى قطعوها فى المحيط

الباب العاشر

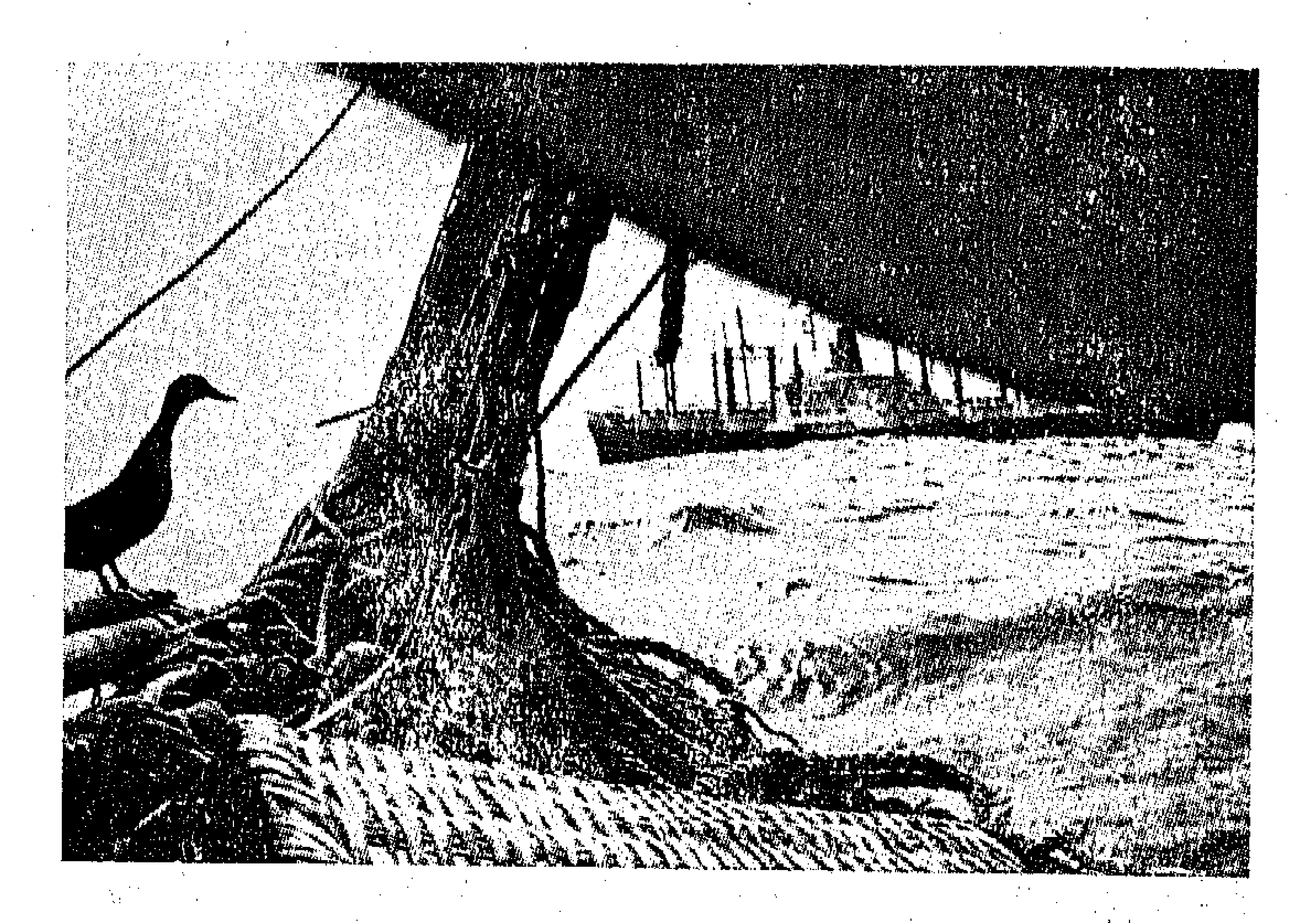
فى المياه الأمريكية

كنا نحتفل فوق القارب والبحر يبتسم من حولنا . فالشمس الاستوائية تسطع فوق سطح مقدمة السفينة ، والأطلنطى من تحتنا تعلو وتهبط أمواجه فى هدوء وروية . وفى داخل مقصورة البامبو كان المكان هادئًا مريحًا . . وعلى الحائط ظهرت خريطة زرقاء للمحيط الأطلنطى وعليها دوائر صغيرة مرسومة بالقلم الرصاص . وكانت آخر دائرة تكشف عن عبورنا خط الطول ٤٠ غربًا وأننا أصبحنا فى منتصف المحيط . . . ولعدة أيام كانت البرازيل قريبة منا لأننا كنا أكثر قربًا من أمريكا الجنوبية عن أفريقيا ، وبما أننا كنا نبحر مباشرة نحو الغرب فسوف نعبر أعرض مكان فى المحيط ، وتصبح جزر الهند الغربية أقرب مكان أمامنا . . . وظل قاربنا المصنوع من أعواد البردى يجرى على صفحة المحيط وشراعه منشور تدفعه الريح فى الاتجاه الصحيح من غير قيادة بسرعة لا تزيد على ستين ميلا بحريًّا أو مائة كيلو متر فى اليوم الواحد . ولمدة ستة أيام كاملة بعد أن عبرنا جزر كيب فردى[1] على الساحل الغربى لأفريقيا ، وقضينا وقتًا عصيبًا فى السيطرة على القسم الخاص بدفة رع بمعاونة المجاديف المحطمة .

---

(١) تبعد حوالى ٣٢٠ ميلا عن الساحل الأفريقى .

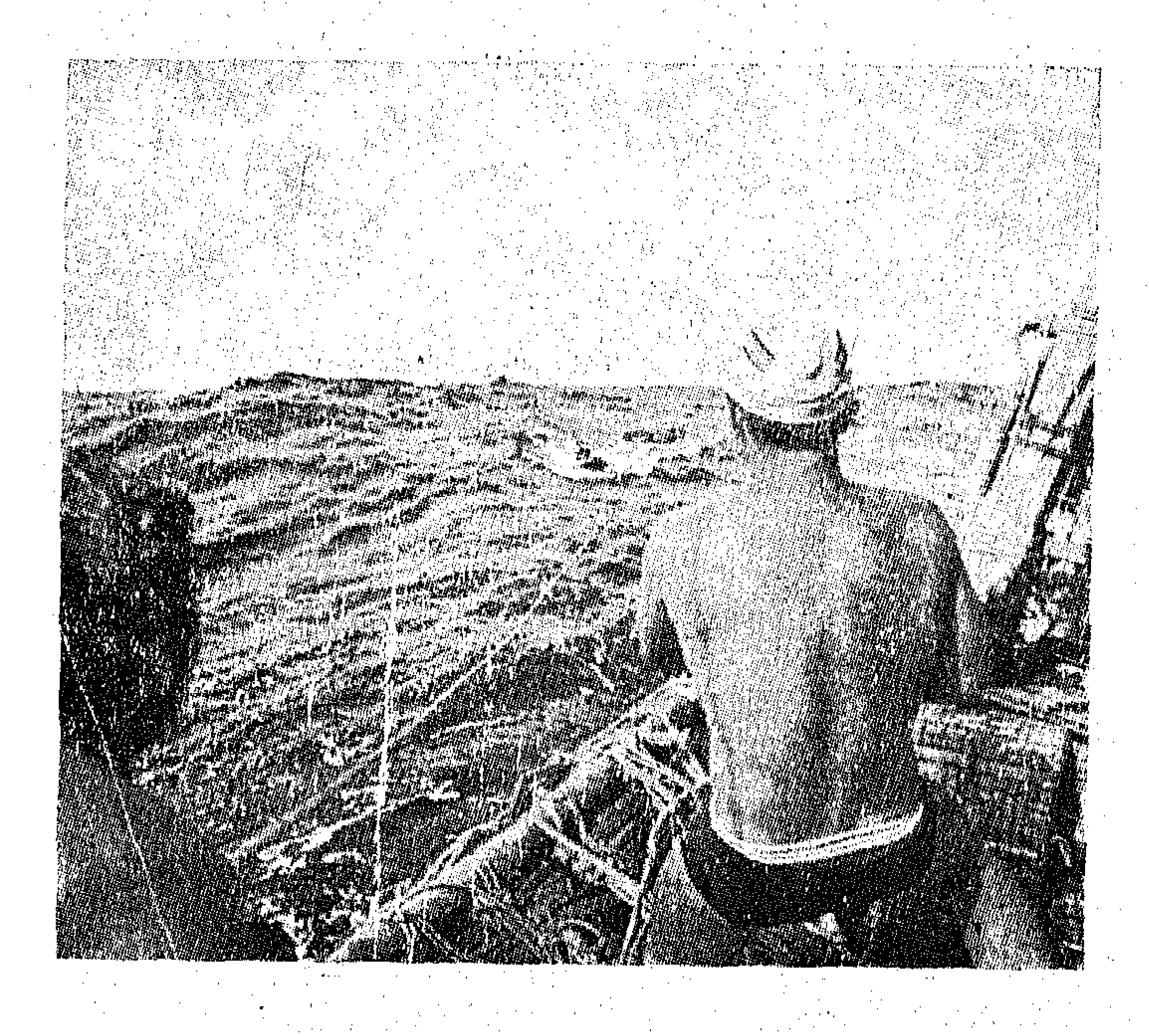
ولكن الأمواج هنا فى منتصف المحيط أصبحت أكثر تعاونا ، وتصالحنا مع البحر وربطتنا به معاهدة صداقة . . .



البطة سندباد تتخذ لنفسها مكاناً استراتيجياً فوق القارب

وقضينا يوماً من أمتع أيام حياتنا فوق ذلك القارب الذهبى رع ابن الشمس ، واستلقينا على ظهورنا نمعن النظر فى النجوم اللامعة من فوقنا ونترك لأفكارنا العنان . . . وفى اجتماعنا هذا الودود دارت بيننا مناقشات عديدة فنحن نمثل مجموعة من الأمم المختلفة . . . تحدثنا عن الشيوعية والرأسمالية وحكومة الفرد والدكتاتورية . وهل نفضل الطعام على الحرية ؟ وهل حركة الهيبز فى الشرق والغرب قد أوجدها الشباب أو الآباء ؟ وهل ستموت هذه الحركة ، أو تزداد عنفاً وضراوة مع تقدم الحضارة ؟ وهل

الحضارة التى بناها آباؤنا ليلا ونهاراً ستقبلها الأجيال القادمة أو ترفضها ؟ فالمصريون والسومريون وأهل المايا والإنكا بنوا الأهرامات ، وحنطوا الجثث وظنوا أنهم على الطريق السوى. ودافعوا عن أفكارهم بالقلاع والقوس والرمح ، وظننا نحن أنهم كانوا مخطئين فى أفكارهم عن هذه الحياة ، لذلك بنينا قذائف موجهة نووية وذهبنا إلى القمر . ونحمى سياستنا الآن بالقنابل الذرية والقذائف المضادة للقذائف الموجهة. ويجلس أبناؤنا فى مقاعد المحتجين على هذه التصرفات والأفكار ، فهم يعلقون تعاويذ



حمل من الفواكه لبحارة رع بعد أن ألقت به عابرة المحيط

هندية حول رقابهم . ويطيلون شعورهم ويضربون على الجيتار وهم جالسون على الأرض ويتراجعون ويتقاعسون ويترحلون إلى ما وراء الشمس والقمر . . .

تحت النجوم وفوق لوح من البردى ينطلق بنا وهو يتهادى فوق أمواج المحيط ، كنا نتسامر . سبعة أفراد يمثلون شعوباً مختلفة . التحموا فى وحدة وتشابهوا فى إنسانيتهم بصرف النظر عن أنوفهم المعقوفة أو المستقيمة أو المفلطحة . . .

قررنا أن نذهب جميعاً لننام ويبقى واحد للحراسة . فقد مرت بنا أيام عصيبة ولاندرى ما الذى يخبئه لنا القدر . فعاصفة أخرى قد تكون مدمرة ، فمؤخر السفينة لم يعد هناك ليحمينا وقد نشرنا خيشاً فوق حائط ظهر القارب القصير والجانب الأيمن للمقصورة بعد أن تدفقت أطنان الماء من مكان الدفة وغمرت رقابنا ، ورءوسنا مستندة إلى الحائط الخلفى . ورحت أسترجع متاعب الأيام القليلة الماضية قبل أن ندلف إلى البحر الهادئ .

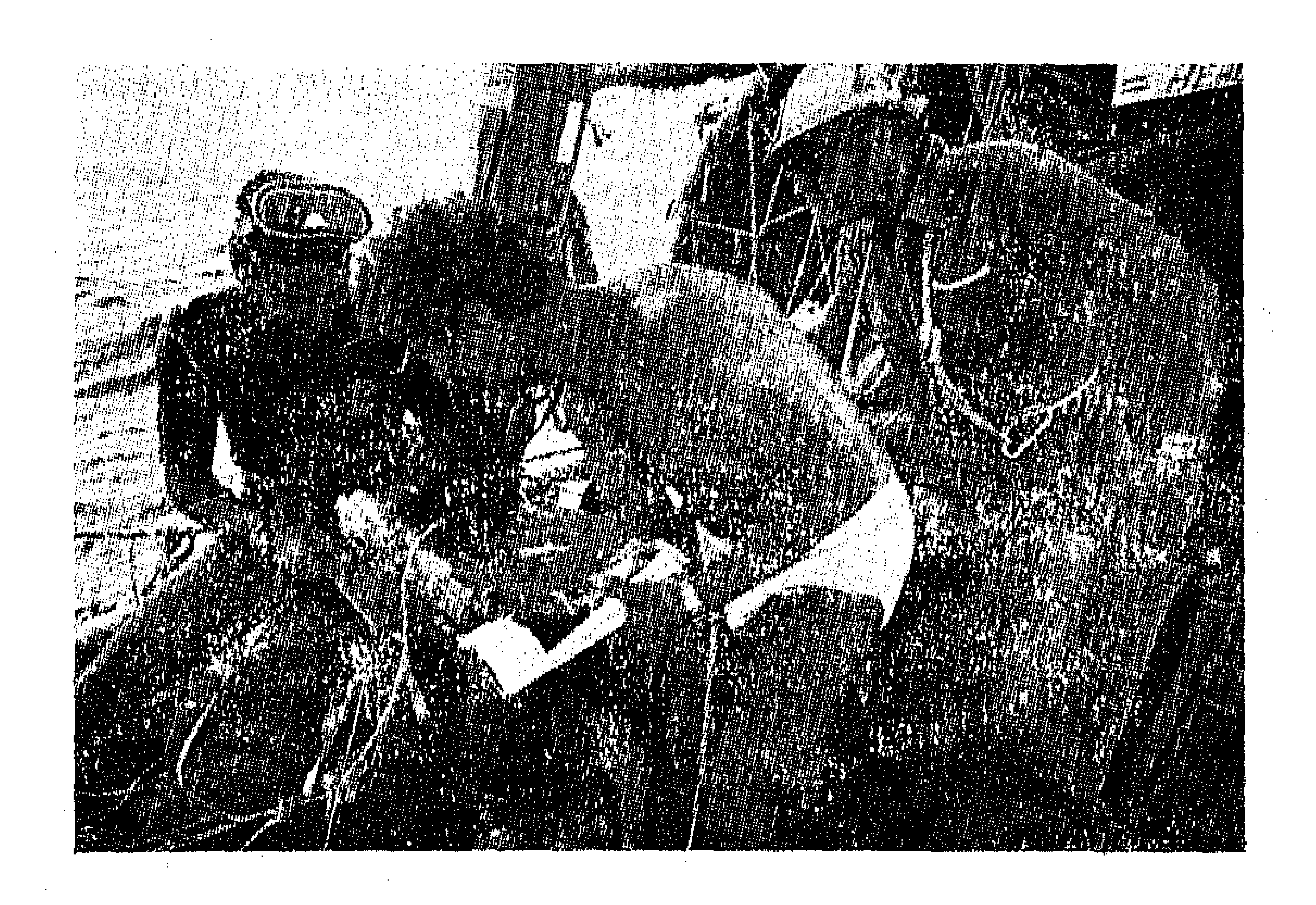
كانت مهمتنا بعد الليلة الأولى أن نحافظ على ملء الشراع بالهواء حتى لا يطوى ويضرب الصارى فى عنف فيحطمه . وكانت الأمواج شديدة الصخب لم تمكننا من النوم الهادئ . . وكانت حركة القارب العنيفة تقذف بنا كالدمى ، ونحن منبطحون على الأرض نحاول أن ننام ، ومياه البحر تجرى فوق ظهورنا ووجوهنا ، فسرعان ما ندلف إلى زكائب النوم وسرعان ما نخرج منها خوفاً من البلل . وفى هذا الاضطراب تصدع برطوم السقف المعترض للقارب رع وتداعت الأعمدة التى ترفع الجسر

وهوى الأخير ، فأسرعنا نبحث عن الحبال بعد أن غمرت المياه رءوسنا ونجحنا فى إعادة الجسر إلى مكانه بعد ربطه جيداً بالحبال . . .

مرت بنا أيام قاسية بعد عبور جزر كيب فردى وفى لوح القارب كان يوم ٢٠ يونية من الأيام العصيبة التى اجتزناها بمشقة . كان اليوم الحادى والعشرون من يونية أيضًا من أسوأ ما رأينا من أيام ؛ فمن غير مجاديف استطعنا أن نقطع فى اليوم الواحد ٥٧ كيلومتراً فى اتجاه أمريكا . وكانت هذه أدنى سرعة بلغناها . وفى الثانى والعشرين من يونيه كانت عارضة الدفة تعوق سير القارب ، لذلك اضطر جورج أن يغوص تحتها وينشرها بالمنشار فى حين ظل ثلاثة منا فوق السطح وتقدمت بعض الدرافيل السوداء المنقطة باللون الأبيض لتلعب بجوار القارب حتى كدنا أن نلمسها . وفى الخامس والعشرين من شهر يونيه أيضًا كان الجو غامضًا غريبًا ، فقد كان بين برد شديد وحرارة أشد . . . وبين وقت وآخر كانت تهب موجة من الحرارة مشبعة برائحة الرمل الجاف ، ولو لم أكن متأكداً من مكانى فى المحيط لقلت إننا كنا على مقربة من ساحل الصحراء .

وفى هذه الليلة كان البحر متوعك المزاج فاضطررنا أن ننقل كل شىء من مكانه إلى مقدمة السفينة ، ومع ذلك كان رع يقذف بنفسه بين ضجيج الأمواج غير عابئ بمصيره وكأنه بساط سحرى . . .

وانبلج نهار جديد . . . بحر هادئ وشمس مشرقة والرياح التجارية تهب من الشمال الشرقى . . وعند ما تغير الجو ظهرت أول سمكة من أسماك



جورج بعد أن عاد بكيس الفاكهة ومعه سانتياجو ويورى .

القرش متجهة نحونا واقتربت من ساقى جورج فسحبهما بسرعة فانحرفت سمكة القرش واختفت من أمامنا . . .

أما يوم ٢٨ يونية فكان من أبهج أيامنا ، فقد انصرف كل واحد منا إلى قضاء عمل خاص به . فجلس جورج يعلم عبد الله القراءة والكتابة باللغة العربية ، وجلس الآخرون يسجلون مذكراتهم ، أو يغسلون ملابسهم ، أو يصطادون السمك برماحهم . ثم سمعنا صرخة ألم فأسرعنا نحو الصوت فإذا به نورمان . . . رأيناه فى مقدمة السفينة وقد شل جسده فظننا أن

سمكة القرش التهمته . . . أسرعنا نحوه وجذبناه بعنف فوجدناه سليما معافى ، ولكن نصفه السفلى كان متورداً ملتهباً ، فقد وقع المسكين فى حبائل سمكة من أسماك « رجال الحرب البرتغالية » وغاب نورمان عن وعيه عند ما سحبناه سحباً إلى المقصورة حيث أعطيناه دواء مقوياً للقلب .

وفى الثلاثين من يونيه دخلنا منطقة فى المحيط غارقة فى كتل من الزيت تسير فى نفس اتجاهنا ولكن الشراع كان قوياً والقارب يجرى بسرعة. وفى الليل بزغ القمر الفضى وانتشرت أشعته فوق القارب الذهبى وشراعه الملون ، وكانت النجوم قد خبت فى الأفق الشرقى وقد انصرم شهر مايو وتبعه شهر يونيه وها نحن ندلف إلى أول شهر يوليو ولا نزال فوق الماء ومعنا أطنان من المؤن اللازمة .

وفى أول شهر يوليو رأينا سفينة كبيرة ونحن نعبر الطريق بين الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا واقتربنا منها حتى اختفت عن أنظارنا وفجأة صاح جورج : إنهم عائدون . . .

وظهرت السفينة مرة أخرى وهى تتجه نحونا فوقفنا جميعا ننتظر حتى إذا ما أصبحت قاب قوسين أو أدنى منا هتف نورمان : هل تريدون شيئاً ؟

فقال القبطان : بل هل أنتم تريدون شيئاً ؟ . . .

فصرخنا جميعاً كل بلغته : فواكه . . . فواكه ! !

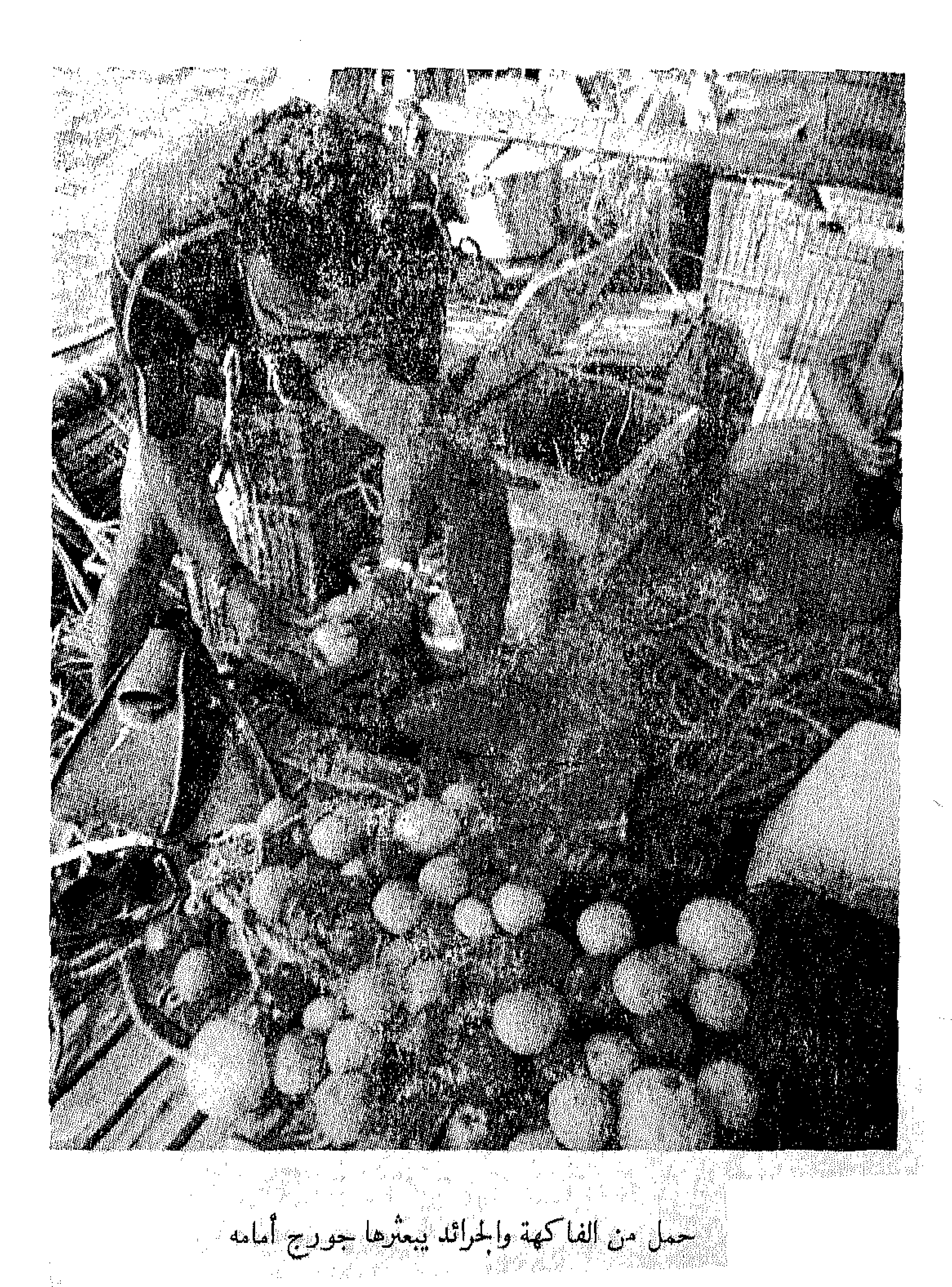
ومع ذلك لم يعبأ رع بهتافنا أو يطلبنا واستمر فى طريقه مندفعاً والسفينة الضخمة تحاول اللحاق به ... وابتسم القبطان وسرعان ما ألقى

فى البحر بحقيبة ضخمة ربطت بطوق نجاة. وفى الحال ارتدى جورج رداء البحر الخاص ليحميه من أسماك « رجال الحرب البرتغالية » وغاص فى اليم وعاد يجر الحقيبة الثمينة ، لقد جاء بصيد وفير : ٣٩ برتقالة و٣٧ تفاحة و٣ ليمونات و ٤ أقطاف من العنب ومجموعة من الجرائد الأمريكية ، فلوحنا للقبطان والركاب بشكرنا وامتناننا وجلسنا نقتسم الغنيمة أو هدية عيد الميلاد . . . ولم ننس القرد صافى والبطة سندباد . . .

* * *

قضينا أياماً ممتعة فوق رع . فحزم البامبو كانت من نصيب عبد الله فقد قام بربطها ربطاً محكماً فى أثناء هذه الأيام المريحة الهادئة . كما كانت الحبال من نصيب كارلو الذى قام بإعدادها وربط الدفة بها . . . وكان إعجابنا شديداً بقوة احتمال رع وقدرته على الصمود هذا الزمن الطويل برغم نصائح الخبراء .

كان رع قارباً من الورق لم يتحطم فيه غير الأجزاء الخشبية ، وأثبت نبات البردى أنه أقوى مادة من مواد البناء وقوته فى البحار المفتوحة والمحيطات لم يدركها النظريون والخبراء . بل لم يعرفوا عنها شيئا . وكان من الخطأ الاعتقاد السائد أن قوارب البردى القديمة كما رسمت أو نقشت فوق جدران المدافن فى مصر كانت مجرد قوارب بدائية . . . وأن قارب البردى المصرى ، وكذلك الطوف ، سبحا وطافا فوق المياه بقدرة خارقة ، حتى إذا كان قاع كل منهما مثقوباً . وكان كل من رع « وكون تيكى » طوفين لأنه لم يكن لهما هيكل . ومع ذلك فمقارنة رع بالطوف الطويل



حمل من الفاكهة والجرائد يبعثرها جورج أمامه

« كون تيكى » تماماً كمقارنة سيارة ذات محرك بعربة تجرها الخيول ، فالحصان يستطيع أن يجر العربة ولكن لكى تقود سيارة لا بد لك من معلم وترخيص . ولم يكن معنا معلم أو ترخيص . كل ما فى الأمر أننا رحلنا فوق قارب مصرى ولم نحلم مطلقاً أنه قارب خاص بل طوف بسيط لا يحتاج إلى خبرة ودراسة . . . حقيقة لقد صنعناه من أجود أنواع البردى ولكنه كان كالسيارة . فإذا لم يتعلم الإنسان كيف يستخدم كل جزء منه فمن السهل أن يخرب فيه أشياء هامة قبل أن يكتشف بعد التجربة كيف يستطيع أن يجعل جميع أجزائه تعمل . وكنا فى الواقع نتعلم باستمرار من فشلنا ونجاحنا فى أثناء إدراتنا لهذا القارب الأسطورى الممتاز . . .

* * *

فى الرابع من شهر يوليو أيقظنى جورج ، وعلى وجهه تعبير قلق واضطراب ، فقد رأى مزاريب الماء تتدفق فى الأفق البعيد . وكانت الشرائط السوداء بين البحر والسماء تبدو مقلقة حقاً عند ما نهضت شمس الصباح ، وكانت هنالك أمطار ، وبعد قليل هطلت بغزارة فوق القارب ، ودوت الرعود فاستيقظ البحارة ، وخرج كل منهم ليغسل جسمه من الملح العالق به . . . وكانت القوارير طافحة بالماء فلم نملأها هذه المرة من مياه الأمطار . وظلت السماء تمطر طول اليوم ، وفى اليومين التاليين ، حتى أصبح القارب مبتلا وثقيلا . وغيرت الرياح التجارية من اتجاهها وبدأ رع وكأنه يسير على أطراف أصابعه بهدوء وسكون فهل كان هذا مجرد هدوء وسكون قبل هبوب العاصفة ؟ . . .

وفى الخامس من شهر يوليو رأى جورج المصرى قوس قزح لأول مرة فى حياته . وامتلأت السماء بأقواس قزح ، بينما تبعثرنا فوق القش الجاف ، وأشعل نورمان المصباح الزيتى ، وصعد به أعلى الصارى . . . وكنا قد قطعنا ١٢٥٠ ميلا أو ٤٠٠٩ كليومترات ، أى عبرنا نصف المسافة وكان ذيل رع يعطلنا بعض الشىء فقد هبطت السرعة إلى أربعين ميلا فى اليوم الواحد .

وعدنا نتناقش من جديد عن البحارة البدائيين الذين وصلوا إلى أماكن بعيدة متفرقة فى العالم من ألوف السنين . وكانوا عادة يسيرون بجوار الشواطئ ، ولكن هذه السواحل كانت دائماً من أخطر الأماكن التى يبحر فيها الإنسان . وتكون العاصفة عادة أشد عنفاً وضراوة عند الساحل عنها فى داخل المحيط . وتدرج الحديث عن قوارب الورق ، وقدرتها على عبور البحار المفتوحة ، والمحيطات . وإذا أراد أى عالم أن يختبر عوداً من البردى فى معمله الخاص فسرعان ما يعطب عود البردى بعد مرور أسبوعين . لذلك جاءت نظريتهم التى تقول إن القارب لا بد أن يغرق بعد أسبوعين ، وهذا خطأ جسيم وقعوا فيه . . . وكان أجدر بهم أن يقوموا بالتجربة فى البحر ذاته . فقد مرت علينا سبعة أسابيع ونحن فى البحر فوق القارب الورقى رع المصنوع من نبات البردى ، وكان يحملنا ومعنا أطنان من البضاعة بدون أن يضجر . وقد كشفت التجربة عن أن بناة القوارب الورقية فى مصر وبيرو كانوا يعرفون تماماً أن أعواد البردى تمتص الماء خلال ما بها من شقوق أو من نهايات أطرافها

المقصوصة ؛ وليس عن طريق غلافها الليفى أو المتليف الذى يغطى العود . لذلك استخدموا فنًّا خاصًّا عند بنائهم لهذه القوارب الورقية ، وضغطوا نهاية كل عود بحيث لا يتسرب إليه الماء مطلقًا . . . ونتج عن ذلك أن البردى وقوارب البردى شيئان مختلفان تمام الاختلاف . قال عبد الله معلقًا : ما دامت الحبال قادرة على الاحتمال فإننا سنظل نطفو وإذا تهدلت فسوف يمتص القارب كميات من الماء وإذا تقطعت فسوف نغرق جميعًا . . .

قبل أن ينقضى شهران كنا قد اعتدنا على البيئة من حولنا . وكنا نشعر بأننا نعاصر هؤلاء الذين ابتدعوا هذه القوارب الورقية وملأوها بالقوارير ، والسلال ، والحبال ، والطعام ، والملح ، والعسل . . . ولا بد أن رجال البحر فى العصور القديمة والوسطى اكتسبوا نفس الخبرة التى اكتسبناها فى هذه الرحلة المثيرة . لم يكن هناك شىء جديد ؛ ولم يكن هناك شىء غريب . مشاكل عادية . وشعورنا بالقلق والراحة وقارب من البردى الأصفر يطفو على وجه المياه بين السماء والبحر . وفوق هذه الحزم من البردى كنا خارج الزمن . . . ليس فينا عالم الآن بل كنا جميعًا أجهزة وآلات فى تجربة علمية تكيف نفسها . وبدأ الزمن يفقد مقاييسه تدريجيًّا ، وازدحم من حولنا أجدادنا ، واقتربت منا القرون البعيدة وتمزقت صورة الزمن . فالڤايكنج كانوا هناك فى الأفق البعيد فى شمال الأطلنطى ، وكولمبس يندفع بمراكبه ، وفى نفس الطريق الذى نعبره . وبعد قليل أصبح بناة الأهرام ، أجداد جورج ، بجوارنا ، وفجأة قال

جورج : لو تحملت الدفة لاندفعت برع خلال قناة بناما عبر الباسيفيكى ، وإذا لم يصلح القارب هذه المرة فسوف أبنى قاربًا جديداً وأبحر به من جديد . فقد أصبح من البديهى أن أجدادى كانوا أول من عبروا الأطلنطى على الأقل فى اتجاه واحد . . .

فقلت : ليس ذلك من البديهى يا جورج . . . أما البديهى فهو أنهم إذا كانوا قد حاولوا فلا بد أنهم قد نجحوا . فقارب البردى أكثر صلاحية للبحر من أى شىء آخر ، ولكن لم يكن المصريون وحدهم يمتلكون قوارب من الورق ، فقد استخدمت هذه القوارب من أحد أطراف العالم القديم المتحضر إلى الطرف الآخر ، من الفرات إلى الساحل الأطلنطى لمراكش . . .

قال جورج : إذن لماذا قلدنا رسوم المقابر المصرية القديمة ما دمنا لم نرد أن نقلد البحارة المصريين القدماء ؟

فقلت : لأن مصر وحدها كانت تحتفظ بصور عصرية للقوارب البردية بكامل تفاصيلها ودقائقها ، وشكراً للفراعنة وجو الصحراء الذى حفظ لنا هذه الكنوز فعرفنا تفاصيل الحياة اليومية المصرية منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة .

كان أحد الصناديق الستة عشر التى كنا ننام فوقها كل ليلة يحتوى على مجموعة من الكتب النادرة التى سجلت حضارات العالم المختلفة . وفى حضارة ما بين النهرين القديمة عثرنا على صورة نادرة لصخرة من الصخور رسم عليها قارب مصنوع من نبات البردى فى معركة من المعارك البحرية .

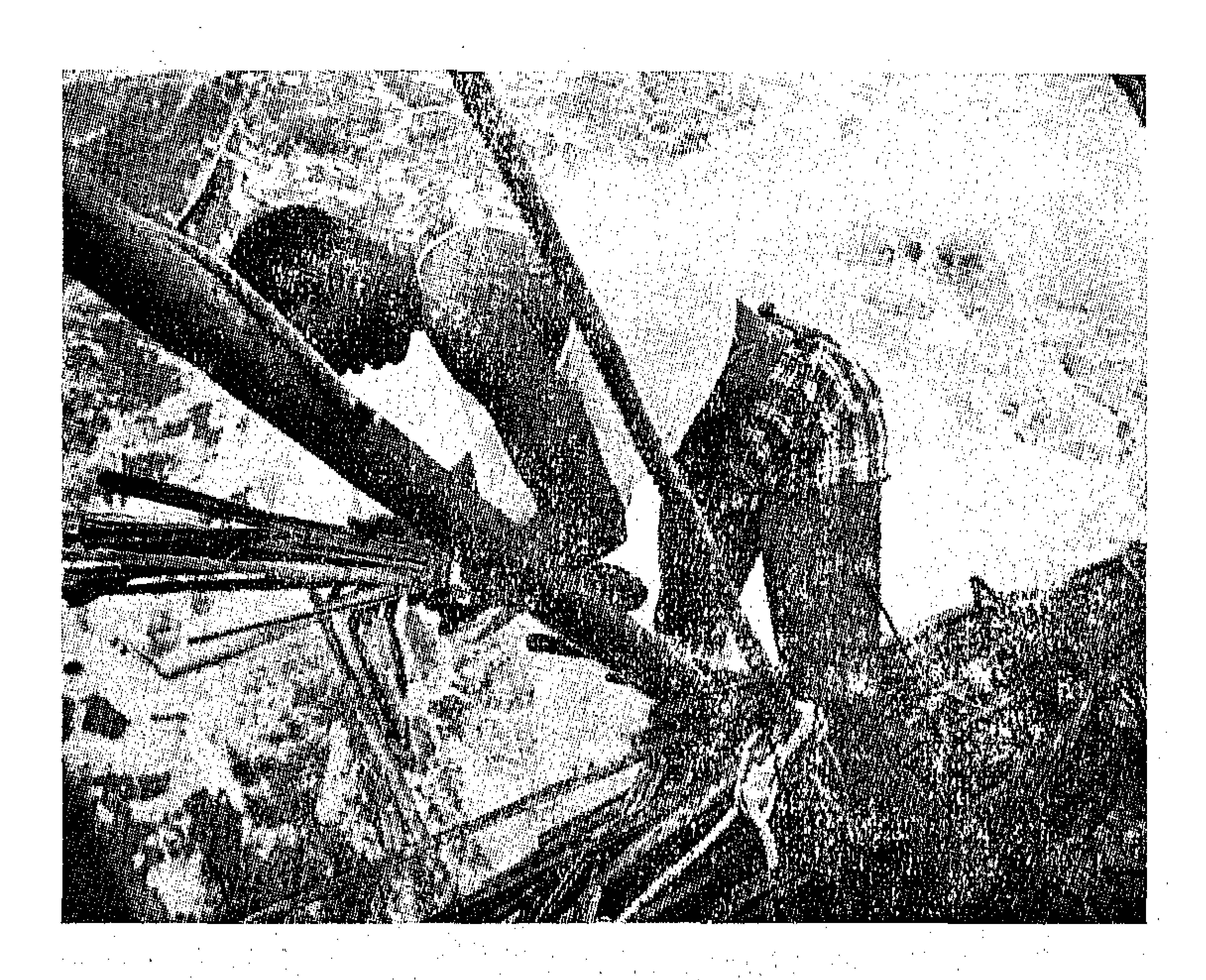
وآخر كان يستخدم فى السلم أو بعد الحرب . . . وهذه كانت أنقاض مدينة (نينوى) Nineveh التى تبعد عن مصب نهر دجلة بثمانمائة كيلو متر ، وتبعد كذلك عن ميناء بايبلوس Byblos على البحر الأبيض المتوسط ، بنحو ستمائة كليو متر . وكشفت هذه الآثار عن نوعين من قوارب البردى وحزم من نبات البردى رتبت بالطريقة المصرية ، وقد قُوِّس مقدم السفينة وثنيت دفتها إلى أعلى . . . وقد ازدحمت القوارب بالناس ومن حولهم الأمواج تمثل المحيط ذاته ثم أسماك سابحة . . . وظهر قارب ثالث وهو يفر من المعركة البحرية وعليه بحارته يصلّون للشمس . . .

هذه القوارب التى كانت تستخدم فى المعارك البحرية اختلفت كثيراً عن غيرها من القوارب التى ظهرت وراء أعواد البردى ، فهى مستقيمة غير منحنية فى المقدمة أو المؤخرة . ولولا وجود هذه الرسومات على جدران المقابر لما صدق إنسان وجود قوارب البردى فى مصر وقد اختفت تماماً كما اختفى نبات البردى . ولكن القوارب التى ظهرت فى دجلة والفرات ظهرت أيضاً فى بيرو برغم بعد المسافة بين البلدين . وبرغم أن الحضارات القديمة ذوت وانقرضت ، إلا أن بعض قوارب البردى ظهرت فى دائرة حول مصر وفى بلاد ما بين النهرين وإثيوبيا وأواسط أفريقيا وسردينيا ومراكش ، وكذلك فى سائر المناطق الأمريكية ذات الحضارة القديمة وفى جزيرة إيستر . وها نحن أنفسنا ومعنا قرد وبطة فى طريقنا إلى أمريكا على قارب صنع فى أفريقيا . . .

وإذا كان المصريون القدماء لم يتعدوا جبل طارق بقواربهم فهل

كانت هناك شعوب أخرى عبرت ذلك المضيق إلى الأطلنطى ؟ . . .

نستطيع أن نرد على هذا السؤال بنعم . . . فالفينيقيون ظلوا لعدة آلاف من السنين أقرب جيران للمصريين فى شرق البحر الأبيض المتوسط وعبروا بصفة مستمرة مضيق جبل طارق ومنه إلى الساحل المفتوح لمراكش وتوغلوا إلى ما وراء ميناء صافى وكيب جوبى ومنها إلى جزيرة موجادور Mogador جنوبى صافى . وينقب علماء الآثار الآن بحثاً عن آثار للفينيقيين فى ساحل ريودى أورو Rio de Oro جنوبى مراكش . واكتشف رجال

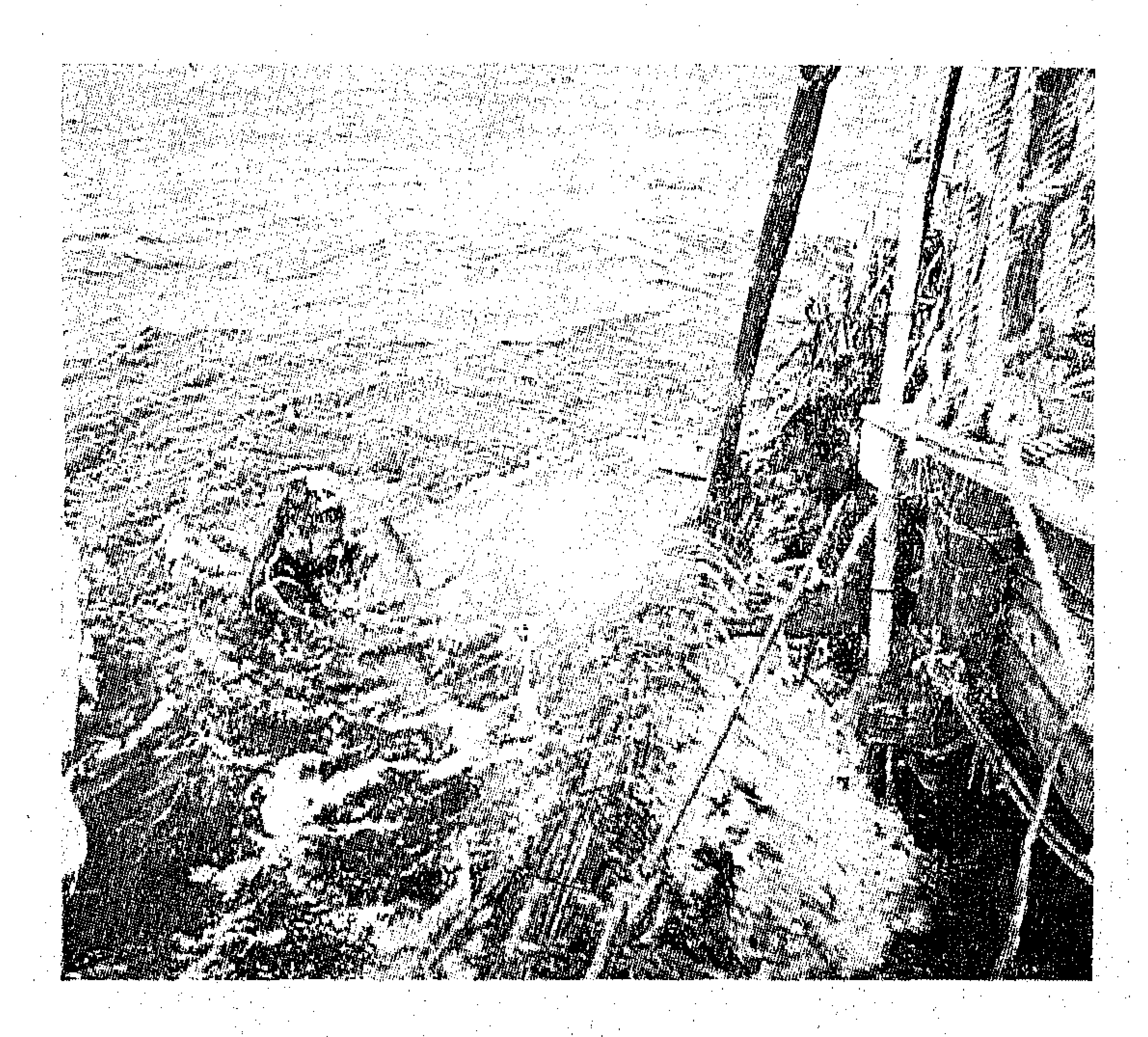


عبد الله جبرين يحاول ترميم القارب بعد أن صدعته الأمواج

الآثار أيضاً أن الفينيقيين كانت لهم قدم ثابتة بين الجوانشيين فى جزر كنارى . وأنهم كانوا يستخدمون هذه الجزر كمراكز أو نقط هامة لكى يعبروا منها إلى كيب چوبى وكيب باجادور Cape Bajador .

فى إحدى كتابات هيرودوت بعد زيارته لمصر قال إنه فى زمن الفرعون نكاو Necho الذى حكم مصر حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد أرسل المصريون أسطولا من المراكب الفينيقية للدوران حول أفريقيا ، وأبحر هؤلاء البحارة من البحر الأحمر وعادوا عن طريق مضيق جبل طارق بعد ثلاث سنوات . وقالوا فى مذكراتهم إن الشمس كانت تشرق وهم مبحرون جنوباً من يسارهم فلما اتجهوا شمالا فى طريقهم إلى جبل طارق أصبحت تشرق من يمينهم . وبعد فترات طويلة من الزمان قامت إحدى البعثات البحرية الفينيقية بحملة كبيرة برياسة هانو بغرض إقامة مستعمرات للتجارة خارج أو فيما وراء جبل طارق . وكانت البعثة تتكون من ستين قارباً ومزودة ببحارة وبخمسين مجدافاً وتوغلت فى الأطلنطى المجهول . وعبر الأسطول المستعمرة القديمة لمدينة الشمس الخالدة ورسا ست مرات على طول الساحل المراكشى ليحدد أمكنة المستعمرات الجديدة . وواصل الأسطول سيره على طول السواحل الخطرة حول كيب چوبى وعبر جزر كيب ڤردى ليبلغ أنهار الأدغال لغرب أفريقيا الاستوائية . ومن المعروف أن الفينيقيين تبادلوا التجارة مع قبائل غرب أفريقيا كما استخدموا القوافل التى كانت تعبر القارة لإحضار العاج والذهب والأسود والحيوانات الضارية التى كانت ترسل إلى مدن سوريا ومصر ومنها إلى جزر البحر

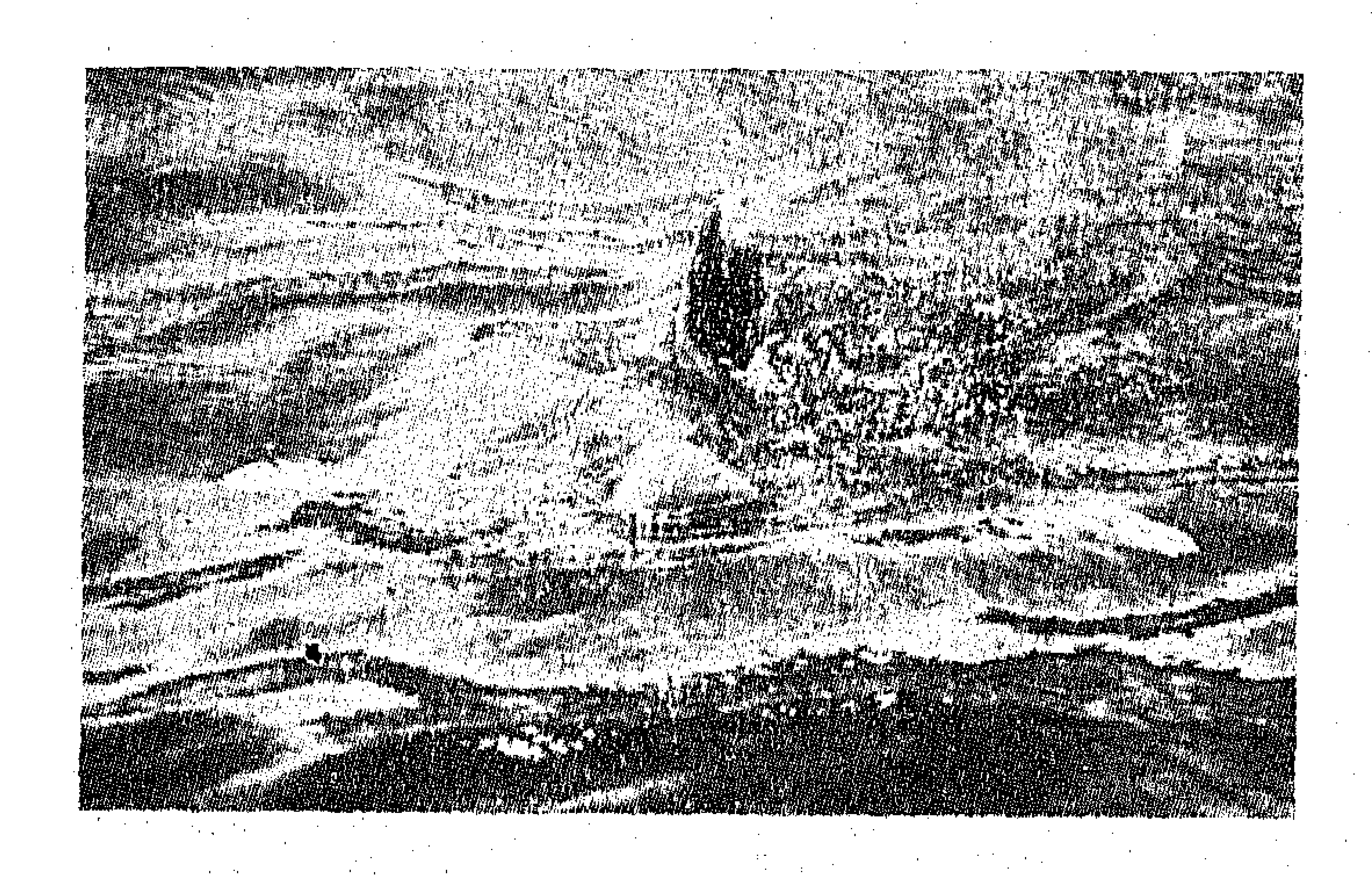
الأبيض المتوسط وساحل الأطلنطى لمراكش ... فمن هم هؤلاء الفينيقيون الذين لا نعرف عنهم إلا الشيء القليل ومن الذى علمهم السفر فى البحار ؟ . . . ومن العسير الرد على هذه الأسئلة . . .



عبد الله وجورج يحيكان حزم البردى بالإبرة والحبال

يبدو أننا كنا قد اقتربنا كثيراً من ساحل أمريكا الجنوبية لأن طيور البحر أول من زارنا من الجانب الآخر ... طيور استوائية غاية فى

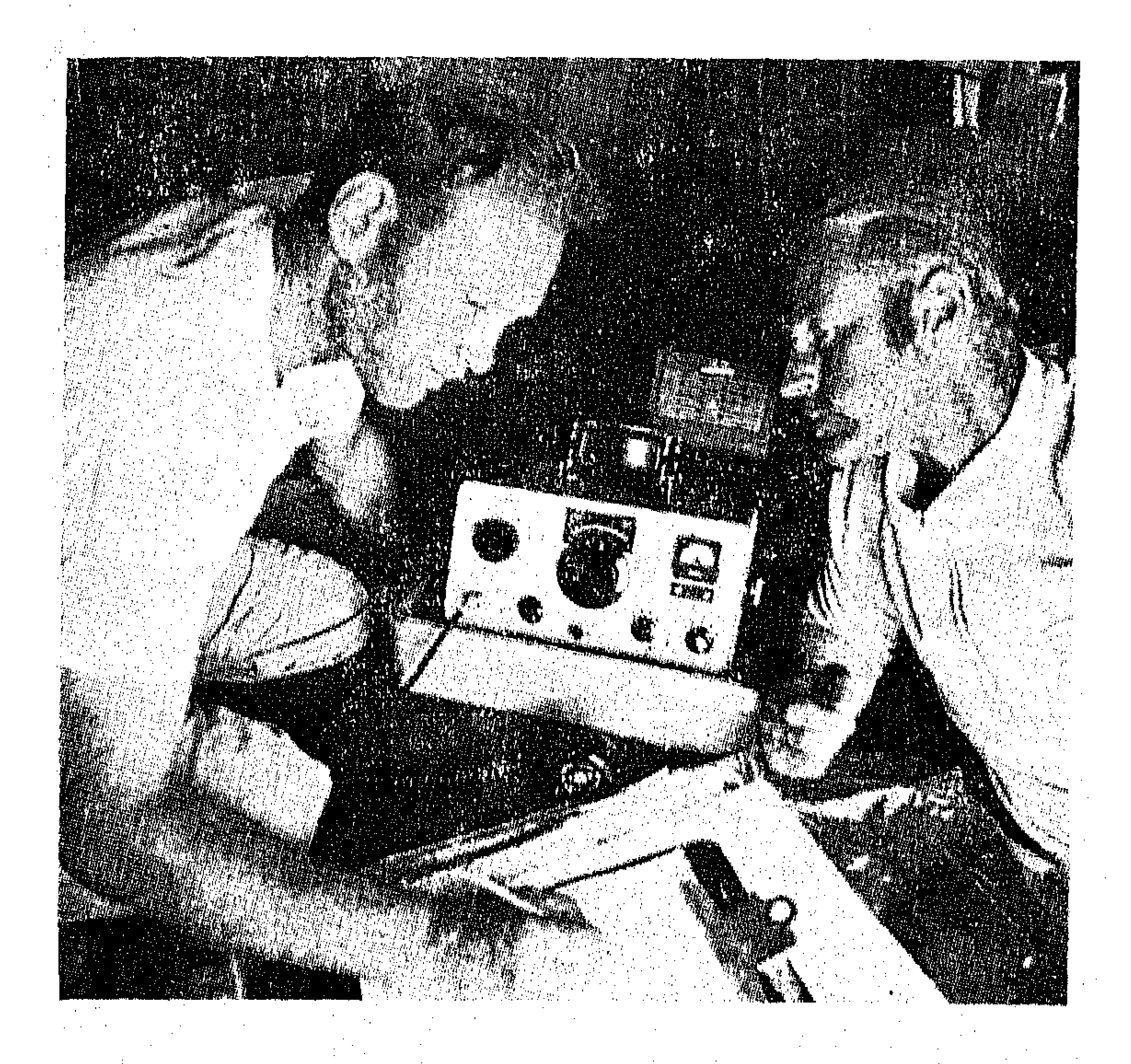
الجمال والرشاقة ، ريشها طويل تطير بنعومة فوق الصارى .
وهاجمنا قرش من الخلف وقام بهجوم عنيف على قارب النجاة ، ولم يكتف الوحش الأسود بذلك — وكان طوله يزيد عن ستة أقدام — بل أخذ يسبح بقوة ، ثم نهض وغاص تحت الأمواج ، وعند ما استوى مع القارب رع عاودته وحشيته من جديد فغاص تحت القارب وأخذ ينهش بعض لفات البردى . وكان معنى ذلك تهديداً مباشراً للحبال . . . ومن سابق خبرتى « بكون تيكى » انحنيت فوق القارب وحاولت أن أمسك ذيل القرش الخشن الذى كان يشبه ورق السنفرة ثم رأيت جرحاً مفتوحاً فى ظهر السمكة وعن قرب سمكتين من أسماك القبطان تدوران حوله ، وفى لمح البصر



وهاجمنا قرش من الخلف وقام بهجوم عنيف على قارب النجاة

ألقى جورج رمحه فى جسم القرش وقاتل الوحش عدة لحظات ثم اختفى وفى ظهره رمح جورج إلى أعماق المحيط . . .

بعد الأسبوع الأول من شهر يوليو بدأ شعورنا بالقلق يزداد لحظة بعد أخرى ، لأن موسم الأعاصير قد بدأ فى المنطقة التى ندلف إليها ، وقد قابل الرجال هذه الظاهرة بهدوء عميق . وفى اليوم الثامن بدأت العاصفة تهب من كل مكان ومرت بنا عدة أيام ، ونحن نواجه الأهوال ، وربطنا أنفسنا بالحبال حتى لا تقذفنا الأمواج إلى البحر . وفى اليوم التاسع جاءنى جورج ليبلغنى أن الحبال الرئيسية قد تكومت على السطح ، وهبط علىّ الخبر كالصاعقة ، فأسرعت فى قفزة واحدة نحو المكان فرأيت مشهداً لا يمكن أن أنساه . فقد انقسم القارب بالطول إلى قسمين ولم أر فى حياتى الأطلنطى بهذا الصفاء وهذا العمق ، وامتقع لون عبد الله وقال فى هدوء إنها النهاية لا محالة . فقد ذابت الحبال وحطمت السلسلة وسوف تتفكك الحبال جميعها فى مدى ساعة واحدة ، وفقد عبد الله كل أمل . فوقفت ووقف جورج بجوارى وقد شلت حركتنا تماماً . . . وأخيراً بدأنا نتحرك قفز جورج إلى اليم وبيده حبل سميك . وتحرك عبد الله وفى يده إبرة من الحديد . وحاولنا أن نحيك القارب الورقى . وسبح جورج تحت رع ومعه الحبل السميك ليربط به القارب ويجمع شمله . وبدأ عبد الله يخيط القارب ، وفى كل مرة كان جورج يضع الحبل فى عين الإبرة وهكذا . ومع ذلك ظل رع سابحاً لا يعبأ . بشىء مما حدث له . وأبرق نورمان فى طلب النجدة وجاءه الرد أن السفينة إيفون سوف تقابلنا بعد أربعة أيام . . .



نورمان وهايردال يتصلان لاسلكيا بسفن الإنقاذ

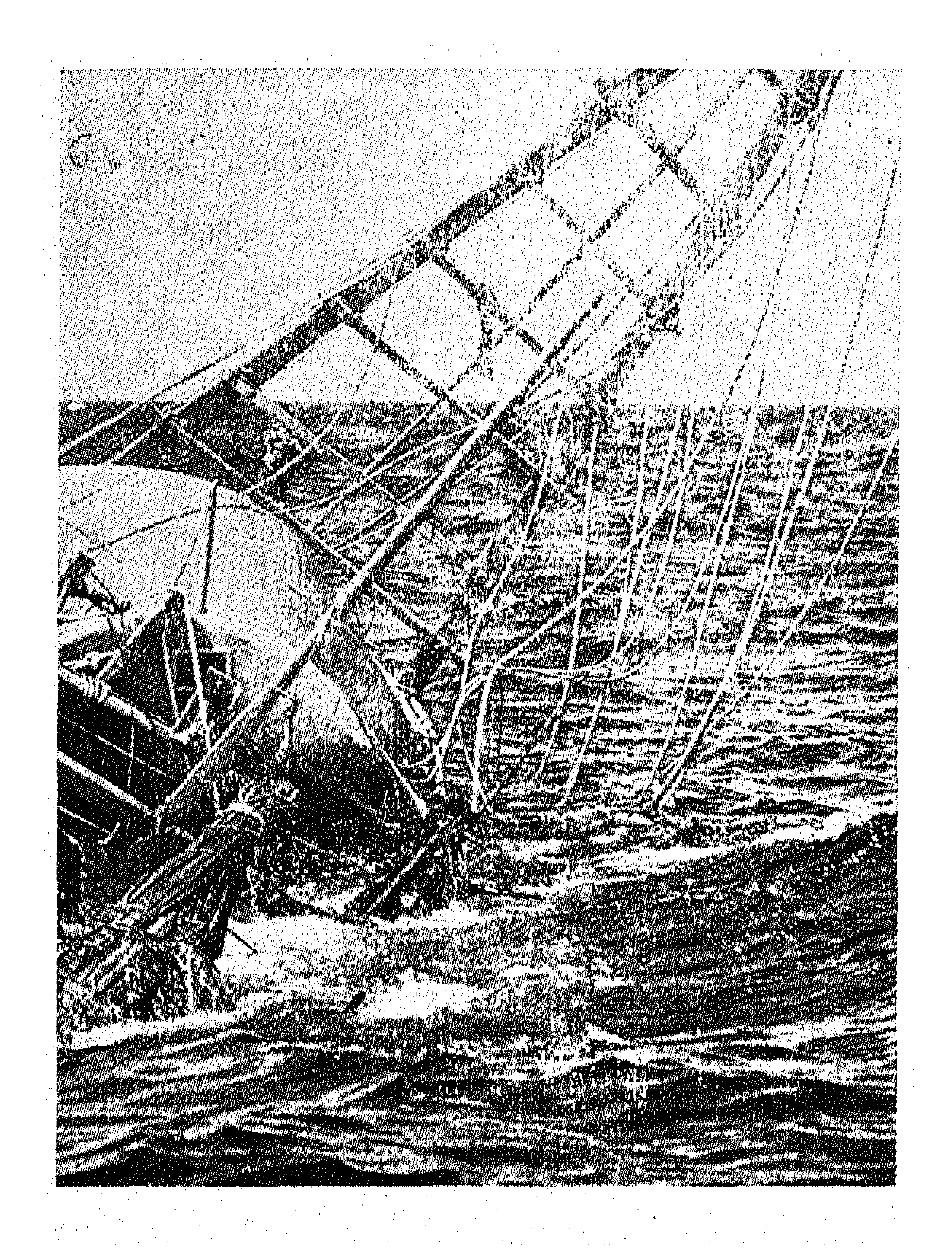
ويمر يومان . وفى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو هدأ البحر واستكان ، ولكن ر ع بدأ يصدر عدة أصوات غير مريحة من الجانب الذى حيكت فيه حزم البردى . وفى اليوم التالى اتجهت نحونا طيور الساحل لتزورنا . ومن اللاسلكى سمعنا صوت اليخت الذى يتجه نحونا وأنه سوف يتأخر بعض

الوقت . وأخيراً جاء اليخت فإذا بهسفينةصيدأكل عليهاالزمان وشرب ، وتبادلنا مع البحارة بعض الإشارات ثم انصرف اليخت من حيث جاء ، وأصبحنا وحيدين فى المحيط مرة أخرى . وبدأت الأمطار تهطل من جديد وتشتد الرياح . ونشطنا للعمل . فلم يبق أمامنا غير أيام ونصل إلى الشاطىء ، واهتز رع اهتزازاً ونهض البحر وفار واستمر الشراع المصرى مرفوع القامة لا يعبأ بالعاصفة وكان يبدو لنا وكأننا نمتطى صهوة وحش كاسر . . .

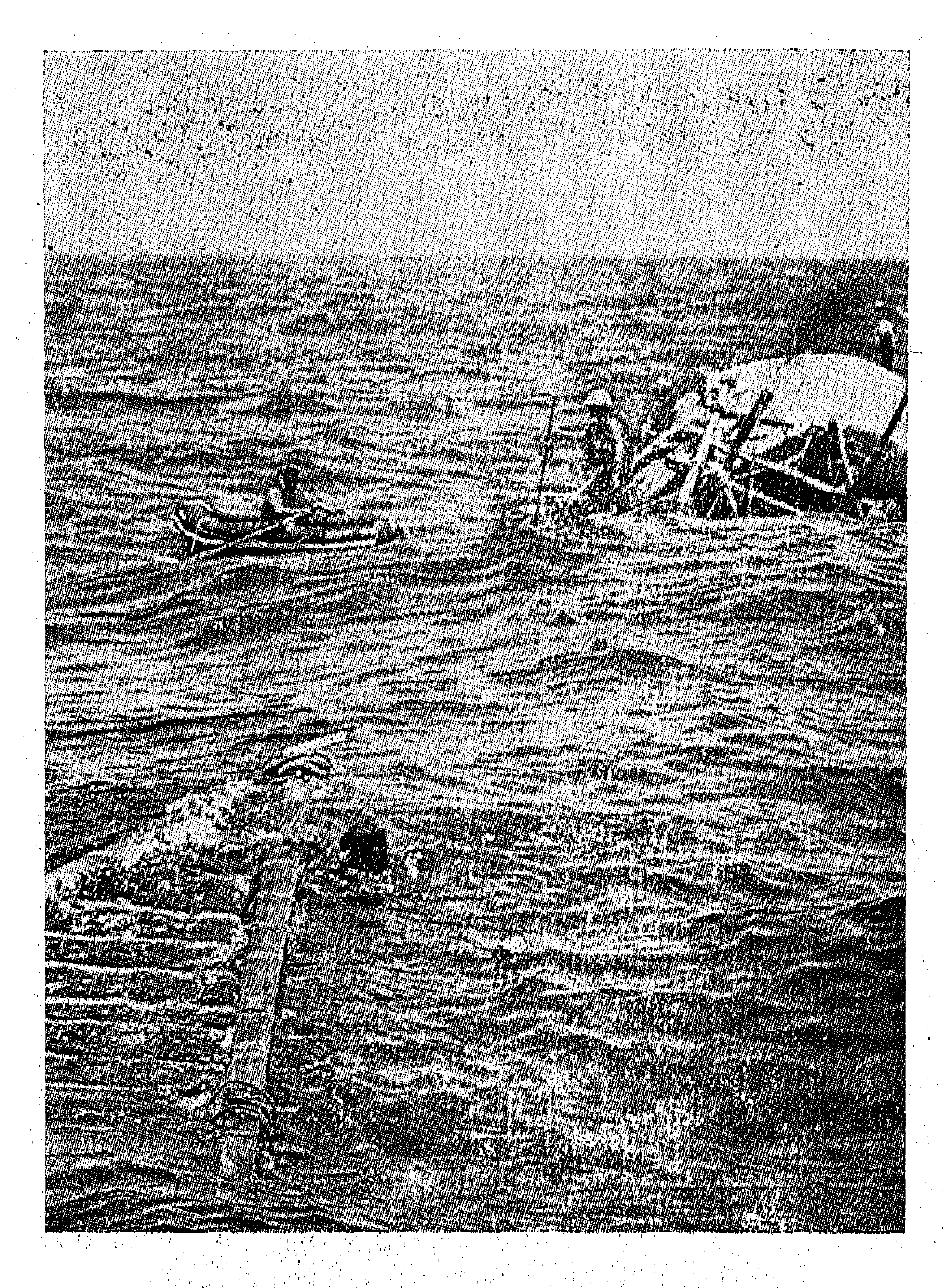
تلبد الجو وهطلت الأمطار ورع يسرع فى سيره وكأنه يقلل من شأن الأعاصير والأنواء . وسقطت أطنان الماء بعنف على ظهر القارب وظل الحال على هذا المنوال لمدة ثلاثة أيام كاملة وتسابق رع مع البحر الغاضب وعاد جورج وعبد الله يحيكان حزم البردى من جديد . . .

وفى الرابع عشر من شهر يوليو اتصلنا باليخت شنندوه وهو يتجه شرق بربادوس Barbados وعرفنا أن العاصفة بلغتهم أيضًا وقد يصلنا فى بحر يوم أو يومين . وفى الواحدة صباحا أعلن يورى أن الساحة قد تحطمت وأمر بأن يخرج كل إنسان من المقصورة أو من مكمنه . ومع ذلك فالشراع منشور ، ولكن القيادة أصبحت عسيرة . وفى الصباح اكتشفنا أن يورى كان يقود القارب بمجداف عادى . . .

وفى اليوم الخامس عشر بلغت العاصفة ذروتها ، ولم يعد فى استطاعة الشراع أن يقاوم أكثر من ذلك فطويناه . ولمعت البروق وهطلت الأمطار . وبعد يوم كامل اتصلنا باليخت شنندوه فطلب إلينا القبطان أن نرسل



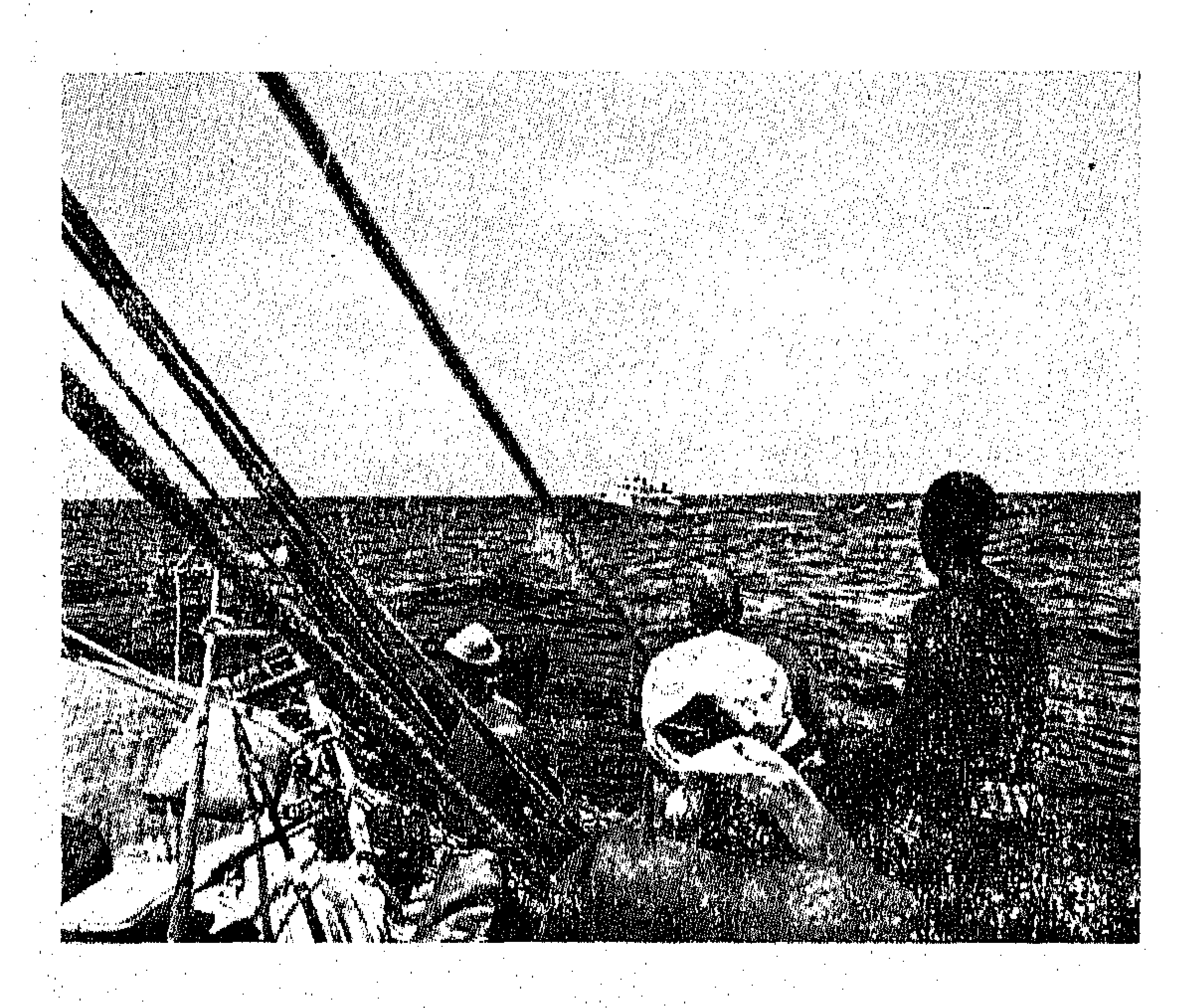
القارب رع يتحطم تماما وتفشل الرحلة الأولى



القارب رع وقد انقلب على ظهره وجورج يسبح بجوار الصارى

إشارات بعد الظلام لتحدد مكاننا . وكانت الريح قد هدأت ولم يكن فى استطاعتنا أن نشعل صواريخ الإشارات فاتصلنا بالقارب مرة أخرى ، فأخبرنا بدوره أن نفس الشيء حدث لإشاراته المبتلة ، وكان من العسير علينا أن نعرف أو نحدد مكاننا بعد العاصفة . . .

وفى عصر يوم ١٦ يوليو كان الجو قد تحسن كثيراً فمكثنا نبحث عن اليخت فى كل اتجاه وأخيراً ظهر اليخت . أما كيف نجونا من العاصفة



يخت أمريكى جاء ليصور آخر مراحل الرحلة

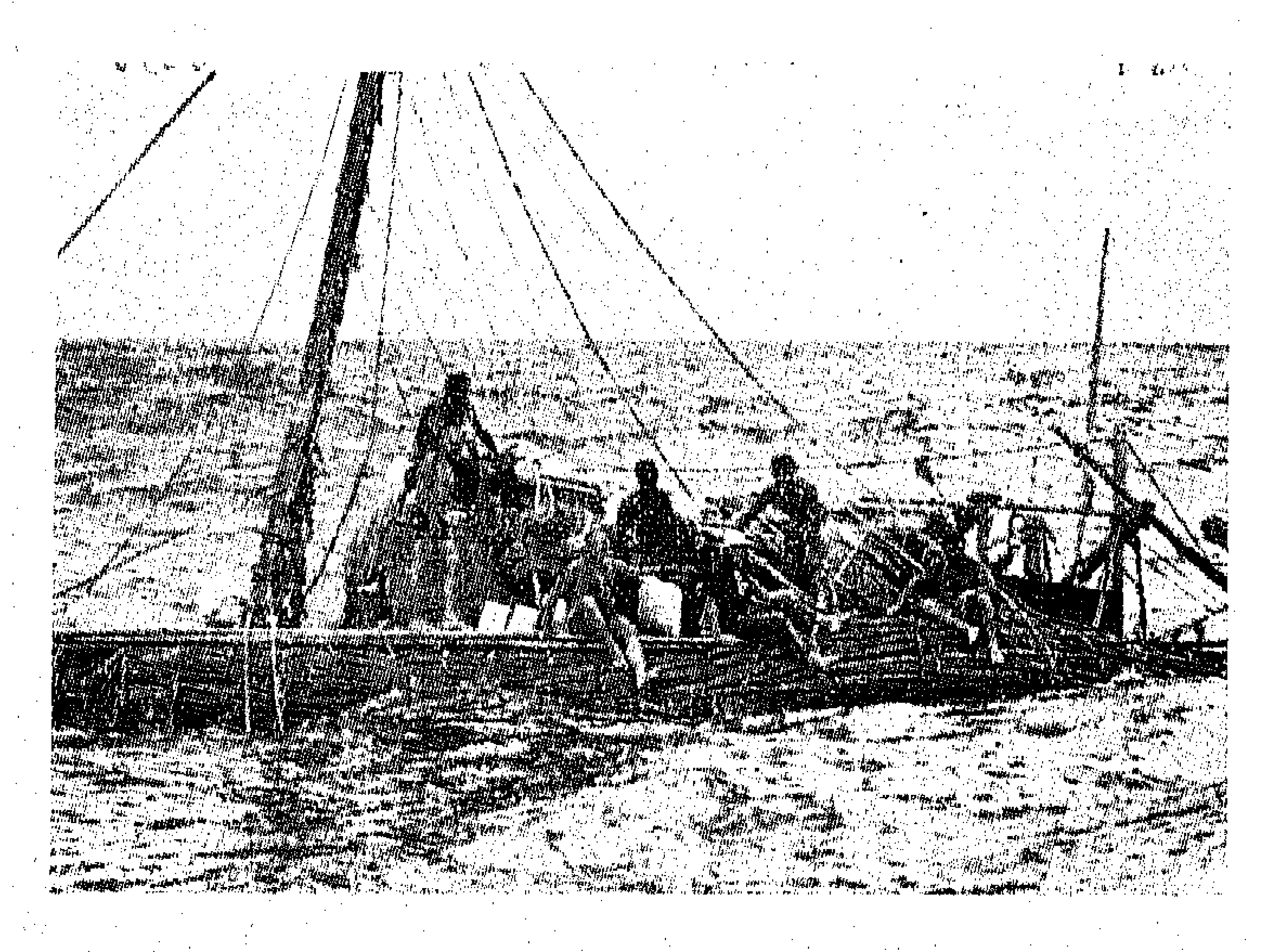
فوق ما تبقى من القارب رع فقد كان الأمر من قبيل المعجزات ، وطار طائر أسود فوق رءوسنا وظهرت أسماك القرش تقطع المياه من حول رع ويبدو أن القروش كانت تتبع اليخت من الجزر وكان القارب قد شرع يغوص تحت الماء إلى الأبد . ونزل قارب مصنوع من الكاوتشوك إلى الماء وانفرجت أسارير عبد الله عند ما رأى رجلا فى مثل لونه يطل عليه من اليخت وحياه عبد الله بلغة بلاده «تشاد» ، ثم بالفرنسية وأخيراً بالعربية . وهبطنا بسرعة إلى القارب بعد أن قضينا ثمانية أسابيع فى رع .

وفى يومى ١٧ و ١٨ يوليو نقلنا الأشياء الهامة إلى اليخت ، وشرعنا نربط أو نحيك حزم البردى بعضها ببعض ، وغاص جورج تحت رع وبدأنا نرى أسماك القرش وقد أحاطت بالقاربين . وحاول قرش أن يلتهم جورج فأسرع الأخير وتعلق برع وكان القرش قد اقترب من ساقيه وكانت ساق جورج بها علامة عضة قرش سابقة فمنعته من النزول إلى الماء مرة أخرى .

أصبح القارب رع عبارة عن حزم من البردى تطفو فوق الماء لا شىء أكثر من ذلك . وناديت على الرجال أن يعودوا إلى رع ، وقلت إنه يبدو أن فى ذلك نهاية للتجربة فقد عشنا على ظهر القارب لمدة شهرين ، ومع ذلك فقد ظلت أعواد البردى طافية قطعنا خلالها ٥٠٠٠ كليو متر . وأثبت هذا أن القارب البردى يستطيع الإبحار فى المحيطات . لقد حصلنا على الجواب وليس هناك من سبب لفقدان حياتنا . وكان مما قاله جورج وأنا أحاول أن أحصل من كل رجل على

رأيه فى مواصلة التجربة : هذا قارب مصرى وأنا أمثل مصر ولا بد أن أواصل التجربة ما دامت حزمة البردى تستطيع أن تحملنى فوق المياه .

ولكنى اتخذت قراراً مخالفاً كان وقعه شديد الأثر . . . لقد قررت ألايقوم الرجال بمخاطرة أخرى وقد استبد بهم التعب وعانوا من الأهوال مالم يعانه إنسان من قبل . . . كان القرار لى وحدى . . .



بحارة السفينة رع قبل أن يتحطم القارب . من اليسار إلى اليمين : نورمان وجورج ويورى وعبد الله وثور وكارلو وسانتياجو

الباب الحادى عشر

ستة آلاف كيلومتر فوق قارب من الورق

استيقظت من نومى مضطرباً . . . تتقاذفنى الهواجس والأوهام . . . المياه من حولى فهل كنت أحلم . وهل انتهت فعلا رحلة ر ع ؟ وهل كان ذلك حلماً مزعجاً عند ما غرقت مؤخرة ر ع فحطمنا الشراع ؟ . . . وهل كانت هذه مجرد أضغاث أحلام وأننا لم نترك بعد الحطام الغارق ؟ . اختلط علىّ الأمر لحظة وأنا أحاول أن أتبين الحقيقة من بين هذه الأوهام . إن الرحلة فوق رع قد انتهت . . . وكنت قد أقسمت ألا أحاول هذا الأمر ثانية . . . ولكن ها أنذا فى مقصورة مجدولة من الأغصان . . . ونفس الفتحة التى تطل على العالم الخارجى حيث تصطخب الأمواج العاتية تحاول أن تتطاول على سماء الليل . . . وهناك نفس الشراع المصرى كما هو لم يتغير ، منشور فوق الصارى القوى . وفى مؤخرة السفينة الذيل الرفيع لقارب البردى يرتفع من فوقنا فى انحناءة رشيقة متعالية برغم أننا رأيناه يغوص بحسرة وألم فى البحر الصاخب . . . كنت متعباً وذراعاى يؤلماننى . فجلست عند ما جاء نورمان زاحفاً على ركبتيه وأضاء المصباح فى وجهى ثم سلطه على رأس به لحية حمراء ينام صاحبها فى زكيبة بجوارى وقال نورمان : جاء ميعاد دوريتكما يا ثور وكذلك أنت يا كارلو . . .

التقطت مصباحي الصغير وأنرته ... وكان هناك الآخرون كارلو ، وسانتياجو ، ويوري وجورج ، وبينهم رأيت وجهاً غريباً عني . . . وجه رجل أسيوي شعره فاحم ، وكان صاحب ذلك الوجه هو « كي أوهارا » Kei Ohara من اليابان . ولكن كيف جاء على القارب رع ؟ طبعاً تذكرت . . فنحن الآن على القارب الثاني . وكنت قد بدأت كل شيء من جديد . . . وكنا قد ابتعدنا عن القارة الأفريقية مرة أخرى . ولم نمر هذه المرة بكيب جوبي . ولم يكن عبد الله ذلك الواقف هناك عند الدفة والذي جاء ميعاد انتهاء نوبته . بل كان الرجل أفريقياً آخر لم أعرفه جيداً من البربر يدعى مدني آية أوهاني Madani Ait Ouhanni . . .

وفوق الجسر كان البرد شديداً وأراني (مدني) كيف أدير مجداف الدفة للابتعاد عن الأرض من غير أن تطوى ريح الساحل الشراع العظيم . واتخذ كارلو مكانه لمراقبة الأنوار من الأرض والسفن . وشعرنا بالخطر يحدق بنا من كل جانب حتى استطعنا أن نخرج من الساحل الصخري للصحراء ومن بين السفن العديدة التي تجري هنا وهناك حول أفريقيا .

ولكن سبق أن فعلنا ذلك . . . وكانت هذه المرة إعادة جريئة لرحلتنا السابقة ، وكنا قد عبرنا كيب جوبي وها نحن نبحر مع الريح مرة أخرى وفي مخاطرة جديدة . فلماذا لم نبدأ من وراء كيب جوبي هذه المرة ؟ ولماذا نحن على سطح رع الثاني ؟ ولماذا أعدت هذه المخاطرة مرة أخرى ؟ هل أستطيع الإجابة على هذه الأسئلة ؟

أجاب كارلو بدلا عني : لا بد أن نقطع هذه الأميال القليلة الباقية

على باربادوس بعد أن وصلنا على رع الأول إلى نقطة الاقتراب .

لقد دفعني كارلو وزملاؤه على إدارة العجلة من جديد لأننا كنا على قيد أميال للقضاء على شكوكنا . . . كما كانت رغبتنا جامحة لاستطلاع ما إذا كان في الإمكان حقًّا أن نعبر المحيط على قارب ورقى مصنوع بطريقة أفضل . . . بعد أن اكتسبنا خبرة واسعة . . . لقد حدثت أشياء كثيرة في أثناء المدة التي مضت بين إرساء رع الأول ورع الثاني . . فقد رأيت في هذه الشهور العشرة، التي تفصل بين الحادثتين ، العديد من قوارب البردى . . .

في مستنقعات بحيرة أوريستانو Oristano Marshes الواسعة نزلت مع كارلو مورى إلى أحد هذه القوارب التقليدية المصنوعة من نبات البردى لألقى نظرة على أبراج سردينيا . . . ما أكبر الشبه بين هذه الأبراج وأبراج المايا التي كانت تطل على الأهرامات ، وبداخلها لوحات دقيقة التفاصيل لبحارة بيض يحاربون رجالا داكني البشرة على الشاطئ . فهل هناك حلقة مفقودة ؟ وهل بنى سادة مايا ومهندسوها المعماريون أبراجًا مثل تلك الأبراج المنتشرة في سردينيا ؟

في هذه المرة فكرنا في بناء القارب رع في مراكش أو ما يطلقون عليه هنالك اسم (ماديا) أى قارب مصنوع من نبات البردى. وفى ميناء العرائش بالقرب من مصب نهر لوكاس[1] بدأنا العمل ، وبعد سفر يومين مع أحد البربر حاولنا العثور على آثار العربات التي اتجهت نحو

---

(١) Lucus River

إحدى القرى النائية. وأخيراً عثرنا على الطريق بعد أن ترجلنا عن السيارة ورأينا أكواخاً وكهوفاً يرجع تاريخها إلى العصر الحجرى ، مسقفة بأعواد البردى . وفى هذه القرية البعيدة كان سكانها بيض البشرة زرق العيون وبها آخرون من الزنوج . . . وصنع لنا بناة القوارب رع الثانى قوياً فتياً يتحمل السفر فى البحار والمحيطات لعدة أشهر . . .

فى هذه المرة كان رع الثانى أقوى من رع الأول . وفى هذه المرة أيضاً جئنا بأعواد البردى من منابع نهر النيل لأن نبات البردى فى مراكش لم يناسبنا ، ولم يستطع عبد الله أن يحضر موسى وعمر من تشاد لبناء القارب الجديد بسبب اضطراب الأحوال السياسية هناك . . . وفضلت أن يقوم ببناء القارب خبراء مراكش الذين يبنون عادة قوارب قوية على نمط قوارب البحر الأبيض المتوسط بمؤخرة ترتفع فى الهواء تماماً كالمقدمة . ولا يزال سكان أمريكا الجنوبية يبنون قواربهم بنفس الطريقة فى بوليفيا وپيرو ويتبعون نفس النظام الذى كان يستخدمه المصريون القدماء فى ربط القارب بالحبال ، بحيث يتكون جانب السفينة من حزمة واحدة وبطريقة تختلف تماماً عن بنائها فى بحيرة تشاد حيث يتكون جانب السفينة من عدد من الحزم مربوطة جنباً إلى جنب . . .

فى هذه المرة أحطنا عملية بناء القارب بسرية تامة حتى أتفرغ لكتابة تفاصيل رحلة رع الأول . وقام صديقى ماريو بوتشى بشحن اثنى عشر طناً من أعواد البردى إلى ميناء صافى تحت اسم مستعار « بامبو » حيث فرغت الشحنة واختفت فى الحال ووصل كذلك إلى مطار الدار

البيضاء Gasa Blanca أربعة من هنود إيمارا ، ومعهم مترجم بوليفى واختفوا كذلك فى هدوء . ومن مصر جاءنا قماش الشراع ووصلتنا مقصورة مجدولة من البوص أيضًا من إيطاليا . ووصلت مراكش أخشاب لصنع الصارى ، والمجاديف وكميات من الحبال بدون أن يلاحظها إنسان ولم يعرف أحد بخبر بناء رع الثانى غير عدد قليل جدًّا من الأصدقاء . . .

وفى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٩٧٠ ولد رع الثانى حيث تحرك ببطء شديد وكأنه طائر من الورق خرج من بيضته ودشنت السيدة عائشة زوجة حاكم صافى القارب رع الثانى ، وتناثر لبن الماعز فوق القارب الجاف قبل أن ينزلق إلى الماء . ودوت فى الأفق عاصفة حادة من التصفيق ، فقد ازدحم الميناء بألوف الناس جاءوا من كل مكان . . . وانزلق القارب إلى الماء فدوت عاصفة أخرى من التصفيق ، وفجأة هبت ريح عاتية أدارت القارب ثم دفعته دفعًا إلى صخرة عالية فتعالت الصرخات وأخفى الناس وجوههم بين أيديهم . واصطدم رع الثانى بالصخرة العاتية وتلقى ذيل رع الثانى الصدمة فانثنى كالريشة . . . وتحطمت القلوب فقد أصيبت الدفة . الجزء الذى لا بد أن يكون سليمًا معافى هذه المرة ، واستدار هيكل القارب ورقص فوق قمم الأمواج ومنها إلى الصخور . . . ولم يستطع إنسان واحد أن يوقف القارب فى هذه الريح الصرصر العاتية ، وبدا أن التجربة قد انتهت قبل أن تبدأ . . . ولكن لا . . . فالذيل الذى انثنى من هول الصدمة استرد هيئته كأنه زنبرك . . . وارتد القارب ككرة من الكاوتشوك مرة ومرتين . لو كان قاربًا من الخشب لتحطم وهوى إلى

القاع . أما رع الثانى فلم يخدش خدشاً واحداً . مجرد علامة بسيطة فوق أعواد البردى الذهبية . ثم استطاع قارب الإنزال أن يلتقط الحبل ويجذب رع الثانى الذى راح يرقص يمينا ويساراً فى العاصفة الهوجاء . . .

لقد كان رع الثانى قوياً متماسكاً بدرجة مذهلة فلم يهبط بوصة واحدة فى البحر وكان رع الأول يسابق الريح كأنه ثعبان . أما رع الثانى فقد كان خشناً قويا كأنه كرة سلة. وأعجب بحارة القارب بالتصميم الهندى الرائع الموروث .

كان الهنود الأربعة الذين بنوا رع الثانى هم: ديميتريو Demetrio وچوزيه José وبولينو Paulino والمترجم البوليفى سينيور زيبالوس Zeballos وكان طول القارب بعد الانتهاء من بنائه ٣٩ قدما وعرضه ١٦ قدما وسمكه ستة أقدام . وطول المقصورة الرئيسية ١٣ قدماً وعرضها تسعة أقدام وتتسع لثمانية أشخاص . وكان أقصر من رع الأول بعشرة أقدام. . .

فى هذه المرة غمس بناة القارب أطراف أعواد البردى فى القار حتى لا تمتص الماء، وفكرت لماذا لا نطلى القارب كله بالقار ، وبذلك لا يهبط فى الماء إلا بقدر نصف بوصة فقط ؟ وربما كان المصريون يفعلون ذلك لأن جدران القوارب القديمة كان لونها أسود وليس أخضر أو أصفر . . .

وبعد انتهاء رحلة رع الأول كتب إلىّ كثير من رجال الدين يقولون إنه طبقاً لما جاء فى الإنجيل فقد كان فلك نوح مطلياً بالقار وأن أم النبى موسى عند ما وضعته فى سلة وهو طفل صغير وألقت به إلى النهر استخدمت القار أيضاً فى طلاء السلة المصنوعة من أعواد البردى . ومع

ذلك فقد كانت هناك قوارب من البردى غير مطلية بالقار وكانت تطفو ما دامت الحبال تتحمل قوة التيار . . . وفى رع الأول استخدمنا كميات هائلة من الحبال . أما الهنود الذين صنعوا رع الثانى فلم يستخدموا غير حبال رفيعة لفوها بطريقة حلزونية من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها . . .

اندفع بنا رع الثانى بسرعة يقفز فوق قمم الأمواج فى نشاط الفتى المراهق الجسور ، وفى اليوم الأول قطع ٩٥ ميلا بحريًّا أو ١٧٧ كيلو متراً ، وفى الليلة الأولى عبرنا جزيرة موجادور الصغيرة . وفى اليوم الثانى هبت علينا ريح عاتية من الصحراء فاضطررنا إلى توطئة الشراع حتى لا يتمزق مقدم السفينة إلى شرائط من البردى . وفى اليوم الثالث سكنت الريح واختفى الساحل فى الضباب تماماً . . . وفى اليوم الرابع كان الهدوء قد شمل البحر فقال البحارة : إن القارب يغوص بسرعة أربع بوصات فى اليوم الواحد ! . وكان هذا الحدث أو التجربة جديدة بالنسبة إلينا لأن شيئًا من هذا لم يحدث لرع الأول فماذا حدث ؟ فهل لم تنجح حبال الهنود فى الضغط على أعواد البردى بما فيه الكفاية ؟ أو كان القارب من نوع آخر من البردى هذه المرة ؟

تراهن الرجال . . . هل سنعبر المحيط هذه المرة أم نفشل ؟ قال اثنان سوف نعبره ، وقال الستة الآخرون : إننا سنفشل لا محالة ... ولم أدر من منهما كان على صواب . . . كنا نغوص بسرعة . وفى اليوم الرابع جاءنى جورج وعلامات القلق بادية عليه وقال إنه فكر مع سانتياجو وكارلو بضرورة التخلص من الأشياء التى لا لزوم لها بما فى ذلك جرار الماء ...

فهل كان خبراء البردى على حق هذه المرة ، وأن القارب لن يتحمل أكثر من أسبوعين فى البحر ؟ وكنا فى حقيقة الأمر قد تركنا القارب رع الثانى عشرة أيام فى ميناء صافى ليمتص الماء، وغادرنا الميناء منذ أربعة أيام فقط وغاصت حزم البردى تحت الماء إلى نصفها..

* * *

استقر رأينا على التخلص من قاربى النجاة ووضعنا رسالة فى زجاجة وربطناها بالقارب الكبير . . . وطار القاربان كبللونين فى اتجاه الشاطىء . ثم ألقينا بزكائب البطاطس والأرز والذرة والدقيق وزكيبتين لم نعرف ماذا كان بهما . . . وكان الأفضل أن نجوع بدلا من أن نغرق . ألقينا بالحبوب التى تأكلها الدجاجات وقوارير ولفة كبيرة من الحبال ومطرقة وكتب ومجلات وجرائد، فكل أوقية كان لها حسابها فأمامنا آلاف الأميال . . . والحقيقة أننا نغوص فلماذا ؟ حاولت أن أقنع نفسى ثم أقنع الآخرين بأن هذا الغوص سوف يتوقف . . . ومرت ثلاثة أيام أخرى وبدا الأمر وكأننا لا نغوص ولكننا لا نتقدم كثيراً فحاولنا أن نستخدم المجاديف الثقيلة ولكن بدون فائدة. وانتهى الخطر. فقفزنا إلى البحر لنستمتع بالحياة فى هذا الهدوء الشامل. البطة مربوطة من ساقيها والقرد صافى يحاول أن يصل إلى سطح الماء،وسبحنا تحت القارب رع حيث رأينا مدارس عديدة من الأسماك . وكان القارب يبدو رائعـًا تحت الماء فى غاية القوة والمتانة . وكان الذيل قويًّا ورشيقـًا . وقال جورج ويورى إن حزم البردى رفعت نفسها

قليلا فوق سطح الماء . وربما كانا على صواب لأن الشمس الاستوائية قد امتصت الرطوبة من أعواد البردى فى أثناء الأيام الخمسة الأولى .

مكثنا أسبوعًا ونحن فى كسل وتراخ لا تهب الريح إلا نادراً من الشرق والغرب . ثم بدأ الهواء يهب خفيفًا فى بادئ الأمر وفى كل مرة كنا ننزل فيها إلى البحر كنا نربط أجسامنا بحبال حتى لا يندفع عنا القارب ولا نستطيع اللحاق به .

وجاءت الرياح . . . فأسرعنا إلى المجاديف . . . وفى يوم ١٦ مايو خرج نورمان من المقصورة ومعه السكستنت — جهاز لقياس الزاوية — أو آلة للتحقق من مركز السفينة بالنسبة إلى خطوط الطول والعرض — ومعه كذلك ورقة وقلم وتنفس الصعداء وقال إننا نعبر كيب چوبى وهذه صخور الشاطىء أعداء رع الثانى الخطرة وقد تخطيناها وأصبحت خلفنا وأمامنا البحر الآن وقد فتح ذراعيه عن آخرهما لاحتوائنا . . .

كانت الحياة فوق قارب مصنوع من الورق أو من نبات البردى حلوة رائعة . وكم من مرة كانت طيور البحر تحط على أعلى الشراع أو مقدمة السفينة لتستريح ، وكذلك العصافير والبلابل الملونة والحمام ، وتشاركنا المراقبة فوق جسر القارب بعض الوقت قبل أن تستأنف رحلتها الطويلة عبر المحيط العريض . . . وأصبحنا حديقة حيوان عائمة فمدارس الأسماك من تحتنا والطيور فوق القارب بألوانها الزاهية تلتقط ما يلقى إليها من حبوب وتشرب الماء القراح فى ذلك المحيط الملحى . . . واستمر القارب فى سيره لا يلوى على شىء وعبر جزر كنارى بدون أن يحاول الوصول إلى الأرض ،

وبدأت الطيور التى استراحت فترات طويلة تتركنا إلى الشاطئ .

عند ما جاءت الريح ارتفع رع الثانى قليلا فوق الماء وبدأت سرعته تزداد من ستين ميلا إلى سبعين ثم إلى ثمانين ميلا فى اليوم الواحد وبذلك أسرع بنا إلى المحيط المفتوح .

ومرت الأيام سعيدة هانئة كنا نغنى فيها ونضحك لا شيء نرممه . . . اشتركنا فى مناقشات عديدة بروح ملؤها المحبة والصراحة والسماحة . ومرت الأيام والليالى والأسابيع ، ومرشهر بأكمله حتى ضقنا ذرعًا بهذا الهدوء ... لم تكن الرحلة هذه المرة مثل الرحلة على القارب رع الأول . . . لا إثارة ولا أشياء تتحطم وتتناثر ولا حبال تتمزق أو تنهار .

قطعنا ١٧٢٥ ميلا من نقطة البداية وكان علينا أن نقطع ١٥٢٥ ميلا فى مياه ملوثة بالزيت والأسماك النافقة . وفى اليوم التالى اشتدت الريح ، وفى اليوم الذى تلا ذلك أى يوم ١٨ يونيه بدأ البحر يعلو والأمواج ترتفع كالطود الشامخ بشكل لم نره من قبل . كان الأمر مثيراً فى أوله ثم أصبح عاديًّا بعد مرور الوقت . وكان الشيء الأكثر إثارة وغرابة احتمال القارب ومواجهته لهذه الجبال من المياه ... ووقفت وحدى فوق الجسر فى نوبة حراستى خلف المقصورة أحرك المجداف لنسير فى الطريق برغم ارتفاع الأمواج إلى خمسة وعشرين قدمًا . واستطاع رع الثانى أن يمر من بين جبال الموج هذه بأناقة ورشاقة ولم نحصل منها إلا على رذاذ . . . ولكن حركة الأمواج الصاخبة المضطربة لم تتركنا وشأننا بل بدأت المياه تنهال على القارب كأفواه القرب وتحطم المجداف الرئيسى فألقينا بالمرساة ، وانقلب

البحر رأساً على عقب ، ونجحت فى تحريك مجداف الجانب الأيمن للسفينة عدة بوصات قليلة ، ومع ذلك ظلت الأمواج تضرب القارب كأنها مطارق . فاضطررنا إلى توطئة الشراع حتى لا تتمزق السفينة فهبط القارب فصرخ نورمان « ارفعوا الشراع قبل أن تسيطر علينا الأمواج » . ومع ذلك كله فلم يتحطم عود واحد من أعواد البردى بل صمدت كألواح الخشب وعلمتنا هذه الحادثة أنه كان يجب أن نربط المجداف بحبال رفيعة . وكان هذا ما فعله قدماء المصريين ، ولكن هذه الملاحظة الدقيقة فاتتنا . . .

كان من العسير أن ننام فى هذه الليلة فقد أصبحنا مرة ثانية على سطح القارب رع الأول وأطنان الماء تتدفق على جوانب السفينة وجانبها الأيمن ، وكأن نهراً يجرى من فوقنا ثم يختفى ويعود إلى التدفق وهكذا . . . .

وجاء يوم آخر لم يكن أفضل من سابقه ، وكنا منهكين تغطينا المياه الصاخبة ، فشرعنا نلقى بالقوارير المحطمة إلى الماء ، ونربط الأشياء ، ونحكم شدها بالحبال . وكانت الحبال الحلزونية الملفوفة حول البردى لا يزيد سمكها عن أربعة أعشر ملليمتراً ، ولم يسمح الهنود بأن تلف حزم البردى بحبال سميكة ، ومع ذلك فقد كنا نغوص بسرعة تحت جبال الماء المتساقطة علينا .

استطاع القارب أن يواجه الأمواج بشجاعة وأصبحنا فى وسط الأطلنطى على بعد ١٩٠٠ ميل من نقطة البداية وعلى بعد ١٣٥٠ ميلا من هدفنا . ومكثنا يومين كاملين نقاتل فى سبيل إنقاذ أرواحنا ومعداتنا

وظلت الأمواج ترتفع إلى خمسة وثلاثين قدما . وبعد مجهود مضن استطعنا أن نحول مجداف الدفة نحو البحر ، ونتجه غرباً بسرعة تحت الشراع المطوى . وفى اليوم التالى رفعنا الشراع فارتفع القارب وازدادت سرعته إلى ثلاث عقد فقطعنا أكثر من مائة كليو متر فى اليوم الواحد . وثبت يورى ستاراً سميكًا على جانب ر ع ليوقف فيضان الأمواج على السطح ونجحت التجربة .

ومرت الأيام والأسابيع ونحن فى صراع مع الأمواج وبعد تحطيم المجداف بدأنا نوزع الماء على الركاب بقدر نصف لتر كل يوم . كما كان نصيب البطة سندباد والحمامة والقرد تماماً كنصيب الرجال . . . واحتج جورج على هذا التقسيم .

خطرت لنا فكرة ونحن فى نوبة الحراسة : إذا استطعنا أن نحرك الصارى إلى الأمام قليلا فمن السهل أن يقود نفسه مع الريح . . . ونفذنا الفكرة بعد عمل دام عدة ساعات ، وتحسنت القيادة فى الحال واتجه القارب ر ع الثانى غربـًا بسرعة خيالية وتوقفت حكاية غوصه تحت الماء ثم قررنا نشر مقدمة السفينة فاستقام القارب فى سيره وبعد أيام قليلة أخرى قررنا نشر قمة المؤخرة أيضًا وذلك لتخفيف وزن القارب .

* * *

فى النصف الثانى من الشهر الثانى كنا نبحر بسرعة فى اتجاه بربادوس B واتصلنا لاسلكيا بعائلاتنا ونقل إلينا المذياع أن قارب أبحاث سوف يزورنا فى الغد . . . وفى يوم ٢٥ يونية هبطت على ر ع الثانى

فراشة كبيرة فهل أصبحنا قريبين من الأرض ؟ . . .

بلغنا المنطقة التى هجرنا فيها رع الأول بعد الأيام العصيبة التى قضيناها فى صراع مع البحر . وفى نفس المكان تقابلنا مع عدد من أسماك القرش ، ولكنها فى هذه المرة لم تعبأ برع الثانى .

وفى السادس والعشرين من شهر يونية بدأ البحر يثور مرة أخرى وهطلت الأمطار . وفى اليوم التالى اختفت الحمامة بعد أن حامت حول رع فى دائرة . وكان معنى هذا أن الطوفان قد انتهى بعد أن فقد الفلك حمامته . . . وفى يوم ٢٨ يونية ارتفعت حرارة الماء درجتين وفى التاسع والعشرين تسلق القرد صافى الصارى وراح ينظر إلينا من هذا العلو الشاهق وفشلت جهودنا فى إنزاله ، وعندما أحضرنا لعبته المفضلة ، ضفدعاً من الكاوتشوك ، هبط على الأثر ، ومن المقصوره صرخ نورمان فقد اتصل لاسلكياً بقارب الأبحاث الذى طلب إلينا إطلاق بعض الصواريخ للعثور علينا فى البحر الهائج . . .

بعد منتصف الليل أيقظنى نورمان وهو يقول : أسرع لترى ما هناك ، فأسرعت ومن خلفى سانتياجو ، لأرى ما الخبر . . . وكان ما رأيته كأنه يوم القيامة ، ففى الأفق البعيد فى الشمال الغربى نهض قرص من البحر واتسع اتساعاً غريباً كأنه قرص من الألمنيوم أشد لمعاناً من طريق اللبانة ومستديراً استدارة كاملة . وكان هذا القرص يتجه نحونا عبر السماء . وكان القمر فى الناحية العكسية ، فظننت فى أول الأمر أنه انعكاس لحاجز من الرطوبة تنبعث من خلفه أنوار كاشفة أو ربما سحابة ذرية

سببها خطأ إنسانى ، أو ظاهرة من ظواهر الأضواء الشمالية . وغلب على ظنى أنها أجسام غريبة تهبط علينا من الفضاء الكونى . ثم فجأة توقف نمو هذا القرص الغريب وذاب فى الحال واختفى تماماً ووقفنا حائرين لا نستطيع أن نعلل هذه الظاهرة . . .

أطلقنا عدة صواريخ فى بهيم الليل وسمعنا بعدها صوت القارب . وفى اليوم التالى سمعنا أن الظاهرة التى رأيناها فى الليل شوهدت كذلك فى بربادوس فهل كانت مجموعة من الصواريخ أطلقت من كيب كيندى انفجرت واحترقت وهوت من الفضاء؟ لم نعرف السر مطلقاً وقال البعض إنها أطباق طائرة لأننا كثيراً ما رأينا أضواء برتقالية صغيرة فى الشمال الغربى من الأفق فى الليالى الماضية . . . وفى فجر يوم جديد استطاع نورمان أن يحدد مكان قارب الأبحاث بأجهزته الدقيقة وراء الأمواج العالية . ومكثنا طول اليوم دون أن نعثر عليه ، حتى اقتربت الشمس من المغيب . وأخيراً اقترب منا القارب الضخم وعليه علم الأمم المتحدة وتبادلنا التحيات مع القبطان والبحارة وكان الظلام يقترب بجحافله وأخيراً تركنا القارب وحدنا بين الأمواج . . .

وفى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة بلغت سرعتنا ١٤٠ كيلومتراً ، وكان قارب الأبحاث يجد فى أثرنا وقدم لنا القبطان ما كان يلزمنا من معلومات وطعام ، وظل بجوارنا يومين كاملين ثم أسرع فى اتجاه بربادوس .

ومرة أخرى أصبحنا وحدنا فى المنطقة التى ولدت فيها أعاصير الأطلنطى ، وكان الجو غير مستقر ، وجدران الماء تهبط من السماء ،

وتغمر جوانب القارب . وقاومنا الأنواء وألقينا بالمرساة لإنقاذ الشراع وصادفتنا ريح طيبة وأسرع القارب فى الأيام الأخيرة من الرحلة يقطع ١٥١ كيلو متراً كل يوم . . .

وفى يوم ٨ يوليو وعلى بعدمائتى ميل من بربادوس أرسلت الحكومة قارباً سريعاً لتحمينا وكان على ظهره زوجتى إيفون وابنتى آنت .

ومرت ليلة ويوم كذلك والقارب لا يعثر علينا وظل البحث عنا دائراً لمدة ليلتين ويومين . . . وفى مساء اليوم الثانى وكنا قد أصبحنا على بعد مائة ميل من بربادوس رأينا القارب وعليه امرأتان تلوحان بقوة .

وفى اليوم الثانى عشر من شهر يوليو هبطت الطيور على القارب وفى تمام الساعة الثانية عشرة والربع ارتفعت أصوات الترحيب من بعيد ، فقد رأينا الأرض لأول مرة بعد رحلة طويلة شاقة ، وصرخ القرد ورفرفت البطة بجناحيها . وكان القارب رع أكثر جرأة وشجاعة وإقداما وهو يتجه نحو الساحل . وأطلق القارب السريع صفارته ثم رأينا الأرض جميعاً . . .

لقد نجحت رحلتنا نجاحاً منقطع النظير وعند ما تجمعنا حول المائدة لتناول طعام الغذاء كان ذلك غذاءنا الأخير . وبعد الظهر سمعنا صوت طائرة تتبعها طائرة أخرى وتقدمت نحونا القوارب وعليها أقارب البحارة .

لقد أنهينا رحلة رع الثانى وفى ميناء (بريد جتاون) Bridgetown طوينا الشراع العظيم . وكان الميناء مزدحما بالألوف من الناس بعد أن قطعنا ٣٢٧٠ ميلا بحرياً أو ٦١٠٠ كيلومتر .

وقبل أن نرسو بالقارب رع الثانى تصافحنا نحن الثمانية وكان الفضل لهذا النصر العظيم يرجع إلى التعاون الوثيق بيننا . . . نحن أبناء القارات المختلفة .وألقينا نظرة أخيرة على المحيط ، فها هو كما كان فى أيام كولمبس ، وكما كان فى العصر الذهبى لقبائل الكاسيوس وأيام الفينيقيين . . . المحيط الذى لا نهاية له . . .

وقفزنا إلى الشاطئ حفاة الأقدام . . .

واندفع تيار المحيط وحده بعد سبعة وخمسين يوماً قضيناها معه أو بعد ٥٧٠٠ سنة . . . فهل تغيرت الإنسانية ؟ الطبيعة لم تتغير والإنسان هو الطبيعة . . .

الخاتمة

أقدام جافة ، وشعر جاف — كل شيء أصبح جافًّا . . . النوافذ مغلقة ، والأشجار الضخمة فى الخارج تمايل مع عنف الرياح . ولكن الأوراق الموضوعة على مكتبي كانت ثابتة لا تتحرك ، وكذلك شعر رأسي . كل شيء هادئ ثابت . . . فأنا بخير . وقد عدت إلى غرفة مكتبي . وبين أغصان الشجر المتحركة كنت أرى المياه الزرقاء . . . مياه البحر الأبيض المتوسط ، الطريق لكل الحضارات الأولى ، وحلقة الاتصال بين القارات الثلاث التى تحيط به فيما عدا المنفذ الطبيعى الوحيد عند جبل طارق . وعلى سطح المياه رأيت قمماً بيضاء ، ولكن لكى أسمع صوت الأمواج كان لا بد أن أفتح النافذة . . .

كان شعورى بالعودة سالمًا إلى غرفة مكتبي غير مصدق . وقد رصت الكتب والمجلدات على الأرفف . الكتب مغلقة وكذلك النافذة . . . ونشرت خريطة كبيرة أمام النافذة التى تواجه البحر ، فكشفت عن المحيط الأطلنطى بالطريقة التى رسمها مهندسو الخرائط . . . محيط مسطح ضخم لا حياة فيه . يقسم عالمًا مثلثًا إلى قسمين : أفريقيا على اليمين وأمريكا على اليسار . . . الشمال إلى أعلى والجنوب إلى أسفل . وجلست أتأمل هذه الخريطة الغريبة والطريقة التى صممت بها الطبيعة القارتين

والمحيط الذى يبدو ساكنًا كأنه صحراء لا يميزه غير اللون الأزرق لأن لون الأرض يكون عادة أصفر أو بنيًّا أو أخضر أو أبيض . . .

كان الإنسان يتوقف عند ذلك الخط الأزرق لأن عبور المحيط كان دائمًا من الأمور الصعبة . وبعد أن تأملت هذا الجسم المائى العظيم بعض الوقت جذبت الخيط فالتفت الخريطة على نفسها . ورحت أنظر إلى البحر الأبيض وأمواجه تتحرك وفتحت النافذة أصغى إلى صوت الموج وهو ينكسر على رمال الشاطئ ، وتركت الهواء يعبث بالأوراق التى كانت ثابتة منذ قليل على مكتبى . . .

لو تكلم هذا البحر لسرد قصص الرحلات التى لم يسجلها التاريخ فى القرون الوسطى ، وقصص أبطالها الذين كانوا كالديناميت . . . أصحاب خيال واسع وذكاء خارق وشجاعة نادرة وكانوا أقوى من غيرهم يؤمنون بآلهتهم ويخلصون لها . . .

إن بحارة من مصر القديمة تركوا البحر الأحمر ليزوروا موانئ مملكة العراق وآسيا . ومن مصب نهر النيل عبروا شرق البحر الأبيض المتوسط ليجبوا الضرائب من الجزر البعيدة لحساب الفرعون . وشعب مصر ، وكذلك شعب العراق اتحدا وربطتهما معاهدات برغم أنهما كانا يتكلمان لغتين مختلفتين ويكتبان بطريقة مختلفة ، وأنجب كل منهما بحارة مدربين كالمهندسين المعماريين ورفعا شأن الحضارة ، وجعلاها تزدهر ازدهاراً وتصل إلى أقاصى الجزر التى تبعثرت فى الشمال والغرب . . .

إننا لا نعرف على وجه الدقة متى بدأ النفوذ المصرى يمتد إلى هذه

الجزر ، لأنها وقعت بعد ذلك فى أيدى الفينيقيين ، ونحن لا نعرف إلا النزر اليسير عن هؤلاء أيضًا وعن نوع القوارب التى بنوها فى أول الأمر ، فقوارب البردى كان يستخدمها جيرانهم فى الشرق والجنوب وحتى فى الغرب لأن النقوش القديمة فى كريت كشفت عن قوارب بردية على هيئة هلال عليها صوارى ومقصورات .

ومن المياه الفينيقية انتشرت الحضارة فيما وراء جبل طارق إلى ليكسس «Lixus»[1] على سبيل المثال حيث عاشت قوارب البوص . . . ولا يستطيع إنسان أن يقتفى أثر الطرق التى كانت تقطعها هذه القوارب الورقية أو يعيد بناء العلاقة بين هذه الحضارات المتباينة التى أثرت تأثيراً مباشراً على الحضارات المحلية الأولى ومارسها حكام مختلفون فى بيئات جغرافية متباينة . . .

من الذى يستطيع أن يعطى صورة واضحة للبحارة الذين جابوا البحار فى القرن الرابع قبل الميلاد ؟ والذين كانوا يحملون جراراً من الذهب والعملات النحاسية لحوض البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة كورفو Corvo فى الأزورس . وهى جزر قريبة من شمال أمريكا عنها إلى جبل طارق ؟ فهل كان هؤلاء البحارة يجرون وراء الثروات أم يفرون من بلادهم كلاجئين ؟ إن ألوفًا من السفن غادرت موانئ بلادها خلال هذه الأزمنة القديمة ولم يترك أصحابها وراءهم أى أثر مكتوب .

---

(١) هى ميناء العرائش المغربى على المحيط الأطلنطى وقد أطلق عليها الأسبان : لارأشا ، والفرنسيون : لاراش . (الناشر)

إن الفنانين الملكيين فى مصر القديمة سجلوا الحملة البحرية للملكة حتشبسوت فى مراكبها الخشبية التى أبحرت من البحر الأحمر إلى بونت . وعن طريق المصادفة وحدها سجل الجغرافى المعروف إيراتوسين المسافة بين سيلان ومصب نهر (الكنج) ، وذلك بحسابه عدد أيام الإبحار التى كانت تقطعها قوارب البردى ذات الأشرعة والحبال المصرية .

وعند ما أبحر الأمير هانو خلال مضيق جبل طارق فى القرن الخامس قبل الميلاد ومعه ستون سفينة محملة بالبضائع وألوف الاستعماريين من الفينيقيين من الجنسين سجلت هذه الواقعة على عمود أثرى فى قرطاجنة اعترافاً بفضله . . .

ومع ذلك فالرسم الأثرى المحفور لا يبرز هانو كرائد من رواد البحار لأنه فى اليوم الرابع من رحلته فيما وراء جبل طارق وصل أسطوله إلى ليكسَس حيث استأجر بحارة محليين كانوا يعرفون الساحل معرفة أكيدة ، وكذلك أسماء الموانئ على طول امتداد الرحلة لثمانية وعشرين يوماً . . .

وكان هانو يحتفظ على سفنه بمؤن تكفى لمدة شهرين ولكنه استدار راجعاً عندما وصل أسطوله إلى ساحل أفريقيا الغربية الاستوائية ، وفسر الإغريق هذا الأثر فيما بعد ، على أنه يحدد تعداد ليكسس حيث أقام بينهم الأجانب طلباً للصداقة والنصيحة . وكان هؤلاء الرحالة يجيدون استثمار العلاقات الطيبة حتى مع الشعوب البدائية المعادية . وطبقاً لسجلاتهم وقبل أن يجرءوا على ترك سفنهم كانوا يرسلون هدايا مغرية كعنوان للصداقة ويتركونها على الشاطئ لتلتقطها القبائل المحلية . . .

إن الفوائد البديهية للتعاون الدولى بالنسبة للرحلات إلى البلاد الغريبة أو الأجنبية كان يؤمن بها رجال العصور القديمة بجانب المصريين والفينيقيين . لهذا السبب ارتبط المصريون والفينيقيون بأول رباط تاريخى سجل الدوران حول أفريقيا وذلك بقرنين تقريباً قبل أن يعد هانو أسطوله من المهاجرين، والذى أبحر به على الساحل الغربى الذى كان معروفاً وقتذاك . والحقيقة أن بعثة الفرعون نكاو التى أبحرت حول أفريقيا عام ٦٠٠ قبل الميلاد كانت مشروعاً مصرياً لسفن وبحارة من الفينيقيين ولم يرافق البعثة ملك أو فرعون خلال السنوات الثلاث ، لأنه لم يظهر أى أثر أو حفر على جدران قبر من القبور ، أو على عمود من الأعمدة الحجرية العملاقة . كل ما فى الأمر أن المؤرخ اليونانى هيرودوت ، سجل الواقعة قبل أن يطمس التاريخ معالمها . . .

ماذا كان نوع الحضارة التى بدأت تزدهر بين السكان البدائيين للغابات على الجانب الآخر من الأطلنطى ، إذا قدر لهذه البعثة المختلطة من الاستعماريين أن تصل إلى هناك ؟ . . .

مما لا شك فيه أن حضارة قوية قد نمت وتكونت هناك . حقيقة أن سكان أمريكا لم يروا سفناً خشبية قبل وصول كولمبس إليهم ، ولكن سكان مراكش ، وسكان حوض البحر الأبيض المتوسط ، وفيما بين النهرين ، قد رأوا قوارب من البردى ، مثل تلك التى وجدت وعاشت فى أمريكا . . . لقد أجريت تجربة بناء قاربين اثنين فقط من هذه القوارب الورقية بمعاونة بعض سكان البحيرات ومع ذلك فقد قطع القاربان

زهاء ستة آلاف ميل فى أربعة أشهر . وفى الرحلة الثانية رسونا على شاطئ أمريكا . ولو كنا قد بنينا مائة قارب من قوارب البردى لتعلمنا مثل هانو كيف نبحر بها آمنين جيئة وذهاباً خلال كيب جوبى الخطر . ولكن فى الوقت نفسه كم من مرة كنا سنتعرض فيها إلى تحطيم الدفة ونرسوا فى أمريكا ؟

أغلقت النافذة وتناولت قلمى لأكتب . . .

ما زلت لا أعرف ... وليس عندى نظرية محدودة ، ولكن قارب البردى يستطيع أن يمخر عباب الأطلنطى . وفى رأيى أن الرحلات القديمة التى تمت فى الماضى السحيق ، قد نجحت ولم تتحطم القوارب فى ليكسس ، أو جرفها التيار عن الطريق الصحيح ، وهى تكافح لكى لا تتحطم فى تيار كيب جوبى الخطر . . . فهل نجحنا فى الذهاب إلى أمريكا لأننا ركبنا مراكب مصنوعة من خشب ، أو لقدرتنا على قيادة قوارب مصنوعة من نبات البردى ؟

عندى نظرية . . . ربما لأننا أبحرنا فى المحيط وليس على خريطة من الورق . . .

تمت

فهرست الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٢٦٢ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢

